

## الفصل الثالث روافد الصورة الفنية بين الشعراء

المبحث الأول، ثقافة العصر وعلومه وأثرهما فى الصورة الفنية:  
توطئة:

الأدب نسيج معقد تسهم فى تكوينه أمشاج متشابكة، لا يكاد ينفصل بعضها عن البعض إلا فى الدراسة؛ إذ الأدب تعبير عن صاحبه، وصاحبه ليس هو الجسد المكون من اللحم والدم والعظم فقط؛ بل صاحبه هو عقل الأديب وذكريته وما تراكم فيها من ذكريات وعلوم وصور، وما ترسب فى وجدانه من تجارب تظهر فى سلوكياته، مضافاً إلى ذلك كله عاطفة الأديب ومشاعره وانفعالاته وردود أفعاله وخبراته الشعورية التى تكونت خلال سنى عمره المترامية.

وتلك الخبرات وهذه الترسبات المتعددة الجهات هى أنواع المعارف التى تتعارف اليوم على تسميتها بالثقافة؛ فالأدب إنتاج ثقافة متعددة الروافد، حسب تفاعل المبدع مع مجتمعه، وأيضاً حسب تفاعل مجتمعه هذا مع غيره من المجتمعات.

"فالثقافة سر من الأسرار المثلثة فى كل أمة من الأمم وفى كل جيل من البشر وهى فى أصلها الراسخ البعيد الغور، معارف كثيرة لا تحصى متنوعة أبلغ التنوع لا يكاد يحاط بها"<sup>(١)</sup> وهى ترتبط بالمجتمع فى الدلالة إذ هى لا توجد إلا بوجوده، وهو لا يقوم ويبقى إلا بها فهى "طريق متميز لحياة الجماعة ونمط متكامل لحياة أفرادها"<sup>(٢)</sup> وهى كما عرفها إدوارد تايلور: "كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق، والقانون والعرف وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التى يكتسبها الإنسان (بوصفه) عضواً فى مجتمع"<sup>(٣)</sup>.

(١) محمود محمد شاكر، المتنبي، رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا، دار المدني، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ ص ٦٨. ومن أراد تعريفاً شافياً للثقافة فليرجع فى هذا الكتاب إلى صفحات: ٧٣، ٧٢، ٢٨، ٧٤، ٣١، ٣٢.  
(٢) مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة د. على سيد الصاوى، تقديم أ.د. الفاروق زكى يونس، عالم المعرفة - الكويت العدد ٢٢٣، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ص ٨.  
(٣) السابق ص ٩.

الصورة الفنية فى قصيدة المده ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

## مشكلة ورَدُّ:

كما أن الأدب تعبير عن شخصية صاحبه، فهو تصوير -أيضا- لحالة مجتمعه عاداته وثقافته، وسلوك أهله وأخلاقياتهم وطبائهم.

وهذا من المسلمات التى لا يكاد يختلف اثنان حولها، ولكن بعض الباحثين يجانب الصواب أحيانا فيرى أن شاعرا كابن سناء الملك كان يعيش بشعره فى وادٍ، ويعيش حياة المجتمع فى وادٍ آخر<sup>(١)</sup>، فلا شعره صورة لنفسه ولا هو صورة لمجتمعه!! وذلك - فيما أرى مما يناقض الطبائع البشرية القومية؛ فالذى يعيش تلك الحياة الفصامية أحد اثنين: إما متخلف عن ركب قومه لا يعيش ما يعيشون ولا يحس ما يحسون ولا يرى ما يرون، وإما مجنون يتراءى له أن له عالما خاصا به وسلطانا هو المسيطر عليه فهو له يكتب وإليه ينشئ وفيه يبدي أقواله ويعيد.

والحق أن ابن سناء الملك - من خلال ما روت عنه الكتب - لم يكن واحداً من هذين الصنفين؛ بل كان الرجل مبرراً فى قومه، فاعلا فى مجتمعه، ارتقى إلى المناصب المحترمة ونال من المكانات السامية؛ إذ كان نائب القاضى الفاضل وزير صلاح الدين ومستشاره، وكان شاعر مصر الأكبر بشهادة أهل عصره وغيرهم، فلقد رأى الدكتور شوقى ضيف أنه "كان أشعر أهل مصر فى زمنه وقيل زمنه، إذ كانوا جميعاً أصحاب دواوين صغيرة ... أما هو فقد كان صاحب ديوان كبير يحتوى على مئات القصائد والمقطوعات وكأنما اختارته مصر لتقول هذا شاعرى، وشعرى، واضعة فيه خصائص روحها، ليكون صورة لها قبل أن يكون صورة لنفسه"<sup>(٢)</sup>.

والمجتمع الأيوبي - كما نعلمه - مجتمع كانت ثقافته إسلامية سنيّة، قامت على أنقاض شيعية الفاطميين؛ "فمن الأسباب التى أدت إلى اهتمام (بنى زكى) بالعلم والأدب، أن بنى زكى حملوا على عاتقهم محاربة المذهب الشيعى ببلاد الشام ونشر المذهب

(١) د. عبد العزيز الأهوانى، ابن سناء الملك ومشكلة العمم والابتكار فى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢، ص ٤؛ إذ يرى أن هؤلاء الشعراء كادوا يفصلون فصلا تاما ما بين شعرهم وحياتهم العامة والخاصة، ولقد عاشوا فى دواوين الشعر العربى القديم أكثر مما عاشوا فى بيئاتهم المعاصرة "

(٢) د. شوقى ضيف، فصول فى الشعر ونقده، دار المعارف ط ١٩٨٨ ص ١٧٨.

الصورة الفنية في قصيدة الملاح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

السنى، وكان من المنتظر أن يقوم العلماء والأدباء بتلك المهمة، وقد سار صلاح الدين الأيوبي على (نفس هذه السياسة)، عندما أخذ في محاربة المذهب الشيعي بمصر<sup>(١)</sup>، فثقافة الأيوبيين تزخر بالعلوم الإسلامية الشرعية والعربية والعقلية، وتلك العلوم التي روى غير كتاب<sup>(٢)</sup> أنها كانت في ازدهار ونشاط في إطار حركات التأليف والتلخيص والشرح، كان لها أثرها في صور الشعراء وذلك أمر طبيعي لأن العلوم المكتسبة ركن من أركان الذاكرة، وعمود من أعمدتها، فلا بد أن يظهر أثرها فيما تنتجه تلك الذاكرة، وكذا فتلك العلوم تشكل - بما تحويه من ثقافة - شخصية متلقيها وتؤثر في عواطفه فتتحكم - بالتالي - في شعره بوصفه رد فعل تجاه المؤثرات المتعاقبة.

"وقد يظن بعض الناس من استخدام ابن سناء الملك وغيره لبعض المصطلحات العلمية تطرفاً، واقتباسهم لبعض آيات الذكر الحكيم، أنهم كانوا يتجهون بأشعارهم إلى طوائف الدارسين للعلم والحافظين للقرآن الكريم متناسين أو جاهلين أن ذلك كله كان يدخل في الثقافة الشعبية العامة للأمة حين كان العلم والقرآن يدرسان في المساجد ومن حق كل شخص أن يقعد في حلقة أى أستاذ يسمع ويعى دون أن يدفع أجراً"<sup>(٣)</sup> فالصور الفنية التي تمتلئ بها دواوين الشعراء لا بد أن تحظى بنصيب موفور من آثار تلك العلوم من نحو وحديث وفقه ونقد وعلم كلام، فهل ظهر ذلك في شعر ابن سناء الملك وفي صورته الفنية؟ هذا ما يحاول رصده المبحث التالي.

(١) العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم/ محمد محمود صبح، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، عدد ٩٠، ص ١٧ من المقدمة وفيها خطأ طباعي حيث رفع كلمة (بنو) بعد كلمة (اهتمام) والصواب أنها مجرورة بالياء للإضافة كما أثبتتها.

(٢) منها على سبيل المثال: "الأدب في العصر الأيوبي" لمحمد زغول سلام، وكتاب "الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي" لعبد اللطيف حمزة، طبعته دار الفكر العربي طبعة ثامنة سنة ١٩٦٨م، وقد عقد المؤلف الباب الثالث من الكتاب للحديث عن البيئات العلمية وأنواع العلوم التي كانت تدرس في ذلك الوقت، وكتاب الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأيوبية" لـ محمود مصطفى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧، قدم له شوقي ضيف، وقد عقد المؤلف الفصل الثامن منه للحديث عن الأدب والعلوم في مصر من سنة ٥٦٧ إلى سنة ٦٤٨، وقد طبعت مكتبة الآداب من هذا الكتاب نسخة معدلة قام بالتقديم لها د. محمد عبد المنعم خفاجي، وفهرسها الزميل حسن النجار سنة ٢٠٠٣، وكتاب عصر الدول والإمارات في الجزء الخاص بمصر للدكتور شوقي ضيف في الفصل الثاني من الكتاب.

(٣) د. شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف ط ٣ ١٩٨٨ ص ١٧٩.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

### المطلب الأول، علوم العصر وأثرها فى صور ابن سناء:

كان "نظام التعليم فى المدارس الإسلامية - فى العصر الأيوبي- يقوم على مرحلتين: مرحلة التعليم الابتدائى: وكان منهاجه فى جميع البلاد الإسلامية يقوم أساساً على كتابة الخط وقراءة القرآن وتعلم النحو والصرف والشعر، والمرحلة الثانية: التعليم العالى وكان يقوم على تفسير القرآن ومعرفة الديانات والفلسفة وأصول اللغة وفقهها والشعر وعلم القراءات والفقهاء بمذاهبه والتاريخ وعلم البلدان (الجغرافيا) والحديث وعلومه"<sup>(١)</sup>.

وابن سناء الملك واحد ممن تربوا فى ظل هذا النظام التعليمي؛ حفظ فى صغره آى الذكر الحكيم ثم توجه إلى بعض المعلمين لتعليمه الكتابة وشيئاً من الحساب وبعض الأشعار ولم يلبث أبوه أن عهد به إلى ابن برى أكبر أئمة النحو واللغة المصريين - حينذاك ليعنى بتخريجه فى علوم العربية، والتلميذ الفطن يحصل تلك العلوم ويجد فى تحصيلها وتحصيل غيرها من علوم العربية متعمقاً ما استطاع التعمق فى قراءة علم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق مما نجد آثاره فى شعره"<sup>(٢)</sup>.

تربى ابن سناء الملك فى ظل هذا التعليم السائد فى المدارس الإسلامية آنذاك وكانت موهبته الشعرية تسير متوازية مع ما يتعلمه، حتى أصبح شاعراً "ممتازاً إلى أبعد حدود الامتياز"<sup>(٣)</sup>، بل أصبح "أشعر أهل مصر فى زمنه وقبل زمنه"<sup>(٤)</sup> على حد تعبير د.شوقى ضيف وقد ظهرت آثار ما تلقاه من العلوم فى صورته الفنية وفيما يلى عرض لأبرز العلوم التى ظهر أثرها فى صورته الفنية:

#### ١- علم النحو:

كان علم النحو من العلوم التى لا يكاد أحد يبرز فى العلم الشرعى والشعر العربى إلا وقد ألم به لارتباطه بالقرآن الكريم وإقامة قراءته فهو من الأسس التى ينبغى أن لا تفوت الدارس المسلم ولذا فقد استمر على العصور منذ بداية وضعه إلى ما شاء الله، ويبدو

(١) د. محمد زغول سلام، الأدب فى العصر الأيوبي، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٧ ج ١، ص ٩٠.

(٢) د. شوقى ضيف، فصول فى الشعر ونقده، ص ١٧٢ بتصرف.

(٣) السابق، ص ١٨٩.

(٤) السابق، ص ١٧٨.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

أن مسائل النحو كانت مثار شغف وجدل لدى شعراء ومثقفى العصر الأيوبي، حتى رأينا مسائله تظهر فى أشعارهم أطرافاً فى صور فنية، مما يدل على أنها أصبحت من الشهرة بمكان بحيث إذا جاءت فى الشعر لا يحتاج إلى دراستها بقدر ما يحتاج إلى فهم وظيفتها فى الصورة الشعرية ومن ذلك قول ابن سناء الملك (١):

عهدى بطيفك بعدَ بعدك قاضياً      حقىّ عليك فما عدا .. فيما بدا  
رفع الجميلَ وكان مبتدئاً به      أو ليس قد أمروا برفع المبتدا

فالصورة كما نراها .. صورة الطيف الذى ينبو عن صاحبتة فيقضى ما عليها من حقوق لهذا الشاعر، وهو طيف يحق الحق، ولا يعدو فى قضاء (الدين) بل إنه لا ينتظر أن يبدأ بالجميل بل يبادر فيبدأ بإبداء الجميل تكراً منه، ويرفعه إلى الشاعر فيجد الشاعر لذلك مناسبة وشبهاً من علم النحو، أن المبتدأ به من الأسماء حكمه الرفع فهى تورية تتخذ من النحو وسيلة لبروزها. ومن تأثره بمسائل النحو قوله: (٢)

مكّمٌ وسواه ناقصٌ أبداً      كأنه "إن" قد جاءت بلا خبر

فقد أدخل الشاعر تلك الصورة النحوية فى الشعر وتوصل بها إلى مديح مليكه العادل أبى بكر بن أيوب، الذى رآه كاملاً مفيداً كالجملة التامة المفيدة، أما غيره فهو ناقص يصدق عليه التشبيه السابق، وهو - كما نرى - يستخدم مصطلح "إن" ومصطلح "خبر" ويجعل "إن" بلفظها اسماً تصلح معه أن يشبه بها لما لها من معنى مستقل بوصفها مصطلحاً نحوياً معلوماً.

وفى استخدامه "إن" دون غيرها نكتة أخرى فهى حرف والحرف لا يظهر معناه كاملاً إلا مع غيره، وهو مع ذلك حرف يوصف بأنه "حرف ناقص"؛ حيث إن من النواسخ ما يأتى تاماً مثل كان التى تكتفى أحياناً بالرفوع.

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٩٥.

(٢) السابق، ص ١٤٣.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وأبواب النحو-كالعطف والنعت- قابلة لأن يورى بأسمائها فى شعر ابن سناء الملك إذ يقول<sup>(١)</sup>:

ومن نحو شعرى جاءه باب نعته لعلّى أفرا بعده باب عطفه

ف"النحو" هنا تورية عن الجهة، وهو يرشح المعنى القريب الذى هو "علم النحو" بقوله "باب" و"النعت" مورى به عن "النعت" بمعنى الصفة، و"العطف" كذلك بمعنى الحدب والرحمة ولكن الشاعر يرشح لمعنى قريب له وهو "باب العطف" فى علم النحو، فهى صورة بديعية تتخذ من مصطلحات النحو منطلقاً لإقامة التورية.

والضم والرفع والإعراب واللحن من مصطلحات النحو التى وردت كذلك دليلاً على تأثره وكلفه بالنحو، إذ يقول متغزلاً<sup>(٢)</sup>:

عربى الأنساب لا يعرف اللحـ (م) من لإعرابه بضمى ورفعى

فهو لا يلحن فى الضم والرفع فى كلامه، وكذا إذا لمحنا المعنى البعيد فإن من يتغزل فيه لا يلحن فى "ضمه" أى حضنه ولا فى "رفعه".

ومن صورهِ الطريفة التى يتأثر فيها بالنحو ويتحيل لها قوله<sup>(٣)</sup>:

ووصل تولى أدمج الدهر ذكره كما أدمجت فى منطق ألف الوصل

فالوصل الذى تولى وبقي منه أثر أصبح مثل همزة الوصل التى تظهر فى الكتابة وتدمج فى النطق.

ومن صورهِ التى تأثرت بدرس النحو، تلك الصورة التى صور الشاعر فيها ممدوحه "الظاهر غازى" يعمّ الناس بجوده ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء، فهو المضاف وهم مضافون إليه، وهو فاعل الجود وكونهم مضافين وكونه فاعلاً جعلهم يكتسبون منه الرفع فى

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١٩٨.

(٢) السابق، ص ١٩٢.

(٣) السابق، ص ٢٢٢.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

المعنى، وإن كانوا بالنسبة له مخفوضين كالمضاف إلى الفاعل العامل فيه كقولنا: هذا مكرم زيد، وهى مسألة نحوية كما نرى يقول الشاعر (١):

ويخفضهم أنهم كالمضاف ويرفعهم أنه الفاعل

وانظر إلى "الواو" وهى حرف عطف، يشبهه خصلة الشعر الملتوية فوق خد الجميلة ثم انظر كيف استدرجه ذكروا والصدغ هنا واستهواه إلى باب العطف، والبدل فقال (٢):

هب أننى كنت أهوى جورَه سفهاً منى أما كان يهوى جورَه الملاً  
وهبه والصدغُ أوَّ فوق وجنته لا يحسنُ العطفُ أنى يحسنُ البدلاً

والبيت وإن تأثر فيه بال نحو فيه خلل نحوى لأن البيت مروى فى الديوان برفع كلمة "العطف" على أنها فاعل لـ "يحسن"، وكان المنطقى أن يرفع "البدل" على الفاعلية لـ "يحسن" الثانية، ولكن "البدل" لا بد من نصبها لأنها كلمة القافية، واللام فيها هى الروى وهو فى القصيدة لام منصوبة، فهو نصبها لضرورة الشعر على ما فى ذلك من فهم خاطئ لأن الضرورة صالحة ما لم تلبس، لا سيما فى باب كباب "الفاعل" يوقع اللبس فيه فى أخطاء فى المعانى والأحكام وهذا من سقطات ابن سناء إن صحت الرواية.

أو أن يكون الفعل "يحسن"، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى الضمير فى "هبه" فيكون "العطف" حينئذ منصوباً على المفعولية، وكذلك البدل ويكون المعنى أن هذا الحبيب لا يحسن أن يعطف على وأنا عاشقه المذنب، فكيف يحسن أن يبدلنى من نفسه كما يتطلب الحب ويكون ذلك من أخطاء المحقق الذى لم يراع الدقة فى الشكل.

ومن إيراده مصطلحات النحو إيراد "الأسماء والأفعال" فى قوله (٣):

هو الملك القليل الذى خضعت له على الرغم أملاك عظام وأقيال  
وأسماءهم بين البرايا سماتهم وأسماءه بين البرية أفعال

(١) السابق، ص ٢٣٩.

(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٢٤١.

(٣) السابق، ص ٢٥٤.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

فمدوحه وهو الملك الكامل تتعدد أسماؤه بتعدد خصاله؛ إذ أصبحت خصالاً بعد كثرة ورودها أفعالاً، وأظن أنه يقصد بقوله "أسماؤه" صفاته المتعددة مما يمدح به مثل المحسن، المكرم، الجواد، الشجاع، البطل، المقدم .. الخ.

والشاعر هنا يقول أن هذه الصفات ليست لمجرد الوسم بها - كما هو معروف فى الأسماء التى قد تجد مسماها على غير معناها - ولكن هى أسماء سمى بها لأنه يفعل معانيها. ومن تأثره بعلم النحو فى صورته ورود أسماء بعض كتب النحو ومؤلفيها كما جاء فى قوله (١):

وقرأنا الغريب من فمها الكا مل حسنا والثغر فيه المبرد

فقد " وصف حسن الفم وغرابته ثم وصف الثغر بالمبرد ، وهو من الآثار العلوية يكثر فى الشتاء ويعف بحب الغمام أيضا، وكثيرا ما يستعيره الشعراء للأسنان الشديدة البياض وزاد فى شعره حسنا لما ذكر الغريب والكامل والمبرد لأنه رشح التورية حين أشار إلى كتاب المبرد النحوى المسمى بالكامل" (٢).

وكما ورى بالكتب ومؤلفيها فإنه يتخذ من التشديد والتضعيف وسيلة لتصوير قوة اندماجه مع حبيبته فى مشهد التعانق؛ حيث يعانق الشاعر حبيبته عناقا شديدا فينصهران معا ويندمجان إلى أن يصبحا جسما واحدا أو حرفا مشددا فهو واحد فى الشكل وإن حوى اثنين (٣):

وبتنا كجسم واحد من عناقنا وإلا كحرف فى الكلام مشدد

ويلجأ الشاعر أيضا إلى الإعراب والبناء وهما من مصطلحات النحو فيورى بالإعراب عن الإبداع لشيء أو إظهاره وبالبناء عن الالتزام لصفة واطرادها فى حبيبته يقول (٤):

(١) السابق، ص ٦٢ .

(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، هامش ٩، ص ٦٢ .

(٣) السابق، ص ٨٢ .

(٤) السابق، ص ٢٨٨ .



الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

والفقه الإسلامى هو منهج حياة المسلمين والمتحكم فى توجهاتهم ، ولذا فإن دراسته ودروسه تعد من الأركان التى تقوم عليها ذاكرة الأمة الإسلامية فلا عجب أن نجد لدى الشعراء مصطلحات فقهية ترد فى أشعارهم وتبرق بين الفينة والأخرى ويبدولى أن ابن سناء الملك كان من النابهين فى دراسة الفقه ؛ فذاكرته ما تنى تمده بما حصلته من علم الفقه خلال الصور الفنية فى شعره ليكون الفقه بذلك خطأ بارزا ولونا واضحا فى صوره الفنية التى تتأثر بالثقافة الإسلامية. فهو فى معرض مدحه للمظفر تقى الدين يورى بمصطلحين فقهيين هما الفرض والندب إذ يقول (١) :

وردك فىنا من سميك سنة فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب

"وواضح من هذا البيت أن اسم المظفر تقى الدين هو: عمر ( إذ شبهه قبلها بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ) وفى هذا البيت تورية فى كلمتى الفرض والندب والمقصود بالفرض العطاء بالندب السريع فى قضاء الحوائج " (٢)

ونصاب الزكاة فى الذهب عشرون مثقالا؛ فإذا بلغت حبيبته عشرين عاما فإن خدودها التى يكترفى ديوانه تشبيها بالذهب قد استوجبت الزكاة ولذا نراه يقول (٣) :

وغانية لم تعد عشرين حجة أقول لها قولا لديه ثواب  
عليك زكاة فاجعليها وصالنا لأنك فى العشرين وهى نصاب  
وما طلبى إلا قبول وقبله وما أربى إلا رضا ورضاب

فالثواب يرشح للزكاة، والنصاب، ويشعرك أنك فى حلقة من دروس الفقه فى مسجد لولا نوعية النصاب، ونوعية الزكاة المطلوب أداؤها، إذ الذاكرة هنا توظف مخزونها الفقهى فى موقف عاطفى غزلى.

وفى مديحه للقاضى الفاضل يردد مصطلحى الفرض والندب فيقول (٤) :

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١١ .

(٢) السابق، هامش، ص ١١ .

(٣) السابق، ص ٢٠ .

(٤) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٣١ .

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ورأت حبه الملوك من الفر (م) ض ولا فرض مثل حب الندب  
ويقول (١):

وأقام شرعا للمعارف خيرها منه وفرضا للمكارم نديها

والضمير فى "خيرها" و"نديها" يعود على الخلائق فى البيت السابق لهذا البيت  
وخيرها ونديها يقصد بهما ممدوحه القاضى الأشرف بهاء الدين بن القاضى الفاضل .  
ومن مصطلحات الفقه، التى جاءت فى شعره - كذلك - : الجواز، والوجوب؛ إذ يقول (٢):

نرفع قولى عن أن يقا (م) ل فيه يجوز ولكن يجب

وكلمة "قولى" هنا معناها شعرى أى مدحى للقاضى الفاضل الممدوح واجب لا  
جائز والوجوب والجواز من الأحكام الفقهية الشرعية لكنه نقله إلى مسألة مباحة من  
المعاملات الإنسانية وهى مقابلة العطاء بالمدح شعرا إذ يصبح الشعر حينئذ قضاء دين .

ومن أبواب الفقه باب البيع، وفيه أن البضاعة المبيعة إذا كانت رديئة جازردها  
وشاعرنا هنا باع نفسه لحبيبه، وهو يرى نفسه "بضاعة" أخذها الحبيب لكى يمنحه الحب،  
فلا هو منح الحب ولا هو رد البضاعة، فإذا كان السبب فى ذلك أن البضاعة رديئة فليعدها  
إليه ليعيش الشاعر بنفسه هائنة وقلب خلى يقول الشاعر (٣):

يا ليته أسلفنى موعدا ودعه لا يصدق فى الموعد  
أو رد لى نفسا ولم يرضها فالشرع قد جاء برد الردي

ولا يظن أن وصف نفسه هنا بالرداءة فيه شيء من الخسة أو الشعور بالدونية بل  
هو التهاك فى الحب ، الذى تميز به من قبل شعراء بنى عذرة حتى أنه فى البيت الأول من  
صورته السابقة يكاد يلخص ما قاله جميل بن معمر من قبل: (٤)

(١) السابق، ص ٣٧ .

(٢) السابق، ص ٤٣ .

(٣) السابق، ص ٦٩ .

(٤) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ١١٢/٨ .

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وإنى لأرضى من بثينة بالذى  
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى  
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضى  
لو ابصره الواشى لقرت بلابله  
وبالأمل المرجو قد خاب أمله  
وأخره لا نلتقى وأوائله

والفارق بين الشاعرين بين فى التلخيص الذى يدل على طبيعة عصر ابن سناء والإطناب الذى يحكى استرسال جميل بن معمر وطبيعته النفسية من جانب وطبيعة عصره من جانب آخر فشاعرنا ربى فى بيئة علمية متحضرة وعصر علمى يختلف اختلافا كبيرا عن عصر جميل وبيئته فهو يتأثر بالفقه فىطلب رد نفسه بطريقة دارسى الفقه ويقدم علة الرد وهى " الرداءة " وأقول : إن الرداءة هنا دعتة إليها علة عصرية أيضا، هى علة الجناس الذى دعا إليه التقارب الاشتقاقي بين الرد ، والردي ، وتصوير نفسه رديئة إنما هو من وجهة نظر حبيبه أو طرف العقد الثانى من باب الاستدراج أو مجازاة الخصم فى الحجاج.

وفى مقام الغزل يعلل طلبه للوصال دائما بالافتقار إلى حبيبه وحبيبه هو الغنى المثرى من الجمال ليصل بهذا إلى أن على الغنى أداء الزكاة للفقير ويجعل الوصال هو الزكاة يقول الشاعر (١) :

وقلت له أد الزكاة لأهلها فوجهك مثر من لجين وعسجد

ويدخل كذلك التأثير بأمور الفقه طلب الشهادة فى الحدود لدى القاضى وهو هنا يقيم دعوى أن حبيبته قتلته ويطلب شهوده ، فيبدأ أولا بإقامة الدعوى المتمثلة فى أنها قتلته بالفراق بقوله (٢) :

لو واصلتني يوما لم أمت أبدا أو لم تصلني فيا موتى بها كمدا  
ثم يجره ذكر الموت فى البيت السابق إلى مملح فقهى آخر وهو الميراث والوصية (٣) :  
لمن أوصى بميراث الغرام لها هيهات هيهات لا أرضى لها أحدا

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٨١.

(٢) السابق، ص ٩١.

(٣) السابق، ص ٩١.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وهو هنا يستلهم بيت النمر بن تولب، الذى أنكرته عليه سكينه بنت الحسين رضى الله عن أبيها وأمها وصلى على جدها والبيت هو: (١)

هو الملك القليل الذى خضعت له  
أهيم بدعد ما حييت فإن أمت  
على الرغم أملاك عظام وأقيال  
فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدى

والبيت مروى فى "الأغاني" بروايات متعددة وكذلك مقترحات النقاد على الشاعر متعددة أيضا فيما ينبغى أن يقوله عن حال حبيبته إذا مات، ففكرة الاهتمام بحب الحبيبة بعد الموت مكرورة، غير أنها هنا أتت فى صورة فقهية إذ يصبح الغرام ميراثا ووصية.

ثم يستطرد فيأتى بالشهود على حادث القتل فيقول (٢):

وإن تشككت أنى قد قتلت بها  
فاستقسم الدل أو فاستشهد الغيدا  
فغرها ومحياها وقامتها  
كانوا على كما شاء الهوى لبداء

وكما ترى معنى فقد طلب القسم من الدل، والشهادة من الغيد وفى ذلك دقة فى رسم الصورة والإتيان لكل بما يناسبه، وهذا تقسيم حسن ودقة فى الوصف؛ ف"الدلال" يستدعى الإنكار فى الشهادة لأن المتدلة تظهر الإعراض وتبطن الميل، ولذا فقد طلب القسم من الدلال، و"الغيد" وهو النعومة والجمال وهذا لم يطلب منه القسم لأن شواهد لا تحتاج إلى قسم وإلا لما كان هناك داع للحب، ولا يظن أننى أتمحل هذا المشهد القضائي لأثبت تأثره بالدرس الفقهى فهو يقول بعد هذا (٣):

وليس ينفع فاهما جده لدمى  
وخدها عند قاضى الحسن قد شهدا

وهى صورة أخرى من صور تأثره بالفقه أو قل: هى تمام الصورة السابقة لأن الحبيبة سوف تنكر قتله، ولكن خدها المشرب بدم الجمال والحياء هو أداة القتل هنا وعليه أترد مه وكأن خدها استعار دم الحياء من الشاعر.

(١) نسب البيت مرة إلى نصيب، فى ١٣٧/١٢، ونسبه مرة إلى النمر ابن تولب فى ٢٢/ ٢٧٩ والأقوى أنه للنمر قال أبو الفرج: "والناس يروونه لنصيب وهو خطأ" ٢٢/ ٢٨٠ وإن كان كثير من الكتب نصت على أنه لنصيب مثل الأشباه والنظائر للخالدين، والمستطرف للأبشيبي وغيرها.

(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٩١.

(٣) السابق، ص ٩١.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

والتحريم والتحليل والعقود أيضا من المصطلحات الفقهية التى لها ظهور فى شعر ابن سناء إذ يقول (١):

ويا من بفيه لنا سكر  
ولكنه سكر مسكر  
يحلل جهرا عقود العقول (م) فمن أجله حرم المسكر

ثم إنه يعرض موقف حبيبه منه فى صورة فقهية أخرى هى الفطر لرؤية الهلال بعد الصيام فى جو فقهى يقول (٢):

وأنت الهلال وأنت الهلاك  
أصوم عن الوصل دهرى وقد  
بقتلى تفتى ولا تقتر  
رأيت الهلال ولا أفطر

فالصوم، ورؤية الهلال، والإفتاء كل أولئك من تأثير درس الفقه ومصطلحاته فيه.

ومن دروس الفقه أيضا الطهارة حيث إذا تنجس الإنسان مكانا أو ثوبا أو بدنا وجبت عليه الطهارة بإزالة النجاسة ويقدم ابن سناء الملك صورة للبلاد وقد تنجست بأن وطئ النصارى أرضها فكيف تغتسل البلاد؟ يقدم ابن سناء الملك أداة وهى الماء ولكن الماء غير موجود فليكن ماء الغسل هو دم هؤلاء النصارى ولترو الأرض من دمهم، وهو نوع جديد من الغسل لم يجئ فى النقل عن السلف يقول ابن سناء (٣):

أبدت النصارى واليهود بمعرك  
وما جاء هذا قط فى سالف النقل  
وكانت بهم تلك البلاد تنجست  
فنا ب دم منهم عن الماء فى الغسل

فالنقل، والنيابة، والغسل، أمور خاصة بالطهارة فى الفقه.

ثم يتأثر فى الصورة نفسها بألفاظ الفقه وهو يخاطب ممدوحه قائلا (٤):  
تكبر فيها الله فى الجامع الذى  
جمعت به بين الفريضة والنفل  
وصليت فيها جمعة بجماعة  
تتاديك للإسلام يا جامع الشمل

(١) السابق، ص ١٣٩.

(٢) السابق، ص ١٣٩.

(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٢٢٥.

(٤) السابق.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وإذا كان الغسل من دروس الفقه، التي وردت لديه؛ فالتيمم كذلك يأتي في صورة فنية أخرى في مدحه، إذ وجود الماء لا يبيح التيمم؛ فماذا إذا كان الماء قد طبق الأرض مده؟<sup>(١)</sup>  
رأيتك بحرا طبق الأرض مده فلم تبق عندي رخصة للتيمم

والليل والبحر من الأمور التي يشبه بها المدوحون في الإدراك والإتيان على الصفة فلقد شبه النابغة النعمان بن المنذر بالليل منطلقا من عاطفة الخوف فقال<sup>(٢)</sup>:  
فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فأين يذهب والليل لا شك آت عليه؟ وشاعرنا هنا كيف يتيمم والبحر آتٍ على كل شبر من حوله ولا يشك في أن البحر هو وجود المدوح.

ومن تأثره بدروس الفقه التورية بأسماء علماء الفقه كقوله<sup>(٣)</sup>:

فمن شافعي بين الوري عند مالك لنعمان خديه الشقائق تنسب

"وقد روى قوله هذا بالإشارة إلى الأئمة الثلاثة الشافعي ومالك وأبي حنيفة والمعنى: من يشفع لي عند حبيبي ومالك رقبتي الذي حمرة خديه كحمرة شقائق النعمان"<sup>(٤)</sup>  
ومن تأثره بالزكاة ونصابها أيضا قوله<sup>(٥)</sup>:

وقبلته في الخد عشرين قبلة وذاك نصاب لم أقم بزكاته

ومن دروس الفقه التعزير لمن يرتكب خطأ وذلك من حق الإمام<sup>(٦)</sup>:

يا ليتني عزرت فيك فلو عزرت فيك حمدت تعزيري

وإذا افتري أحد فرية على أحد أقيم عليه الحد، فعين الشاعر تكذب عليه فيبيت الخيال في ناظره، ولذا فهو يحدها حد المفتري<sup>(٧)</sup>:

والعين تكذب إذ يبيت ت خياله في محجري

(١) السابق، ص ٢٨٥.

(٢) النابغة الذبياني، ديوانه، شرح وتقديم عباس عبد الستار دار الكتب العلمية بيروت ط ١٩٨٤ ص ٥٦.

(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٣٦٦.

(٤) ابن سناء الملك، ديوانه، هامش ص ٣٦٦.

(٥) السابق، ص ٣٧١.

(٦) السابق، ص ٣٩١.

(٧) السابق، ص ٣٦٦.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

### ولأجل ذلك حددتها بالدمع حد المفترى

وهكذا نرى أن علم الفقه من العلوم الشرعية التى تأثر ابن سناء الملك بدراستها وكانت ذات أثر فى مخيلته، مما يؤكد مركزية الثقافة الإسلامية لديه، وأظن أن الفقه غلب عليه لنشأته فى بيت قضاء إذ كان أبوه الرشيد جعفر ابن سناء الملك أيضا قاضيا وآلة القضاء الفقه، ولاشتغال شاعرنا بالقضاء، مما يظهر من لقبه إذ هو "القاضى السعيد".  
٣- علم النقد،

اهتم الدارسون اهتماما بالقصيدة العربية ومنهجها، وسبروا أغوار أصولها البعيدة منذ الجاهلية من حيث موضوعاتها، وأشكالها، بحورها وقوافيها، وأسسها النقدية التى تركز عليها، وظلت الكتب النقدية تتوارث فكرة منهج القصيدة وما ينبغى أن تسير عليه كالبدء بالطلل والغزل ثم التطرق إلى الوصف ثم إلى المدح والاستجداء.

وكان الدارسون فى العصر الأيوبي كأسلافهم لا ينفصلون عنهم، توارثوا دراسة النقد الأدبي وكتبه، وألفوا فيه، فكان لقواعد النقد الأدبي ظهور فى أشعارهم إما تطبيقا لقواعده على القصيدة الأيوبية، وإما ظهورا لمصطلحات النقد على الصور الفنية بوصفها من روافد العقلية العلمية الأيوبية.

وابن سناء الملك كان يؤمن بأن القصيدة العربية ذات منهج ينبغى أن تسير عليه هو ما حدده ابن قتيبة من قبل فى كتابه الشعر والشعراء وهو مشهور، فالقصيدة يجب أن تبدأ بالغزل والبدء بغير الغزل استثناء، يدفع إليه الحب الشديد للمدوح الذى يتوجه الشاعر بالخطاب إليه كما قال لصلاح الدين (١):

ألهى مديحك شعرى عن تغزله فجاء مقتضبا فى إثر مقتضب  
فلم أقل فيه لا أن الصباية لى يوم الرحيل ولا أن المليحة بى

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٤ وتكرر الفكرة نفسها عنده فى ص ٢٧٢، ٢٩٣.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وهو يعتذر بذلك عن مطلع قصيدته (١):

وبابن أيوب ذلت شيعة الصلاب بدولة الترك عزت ملة العرب

ويكرر الفكرة نفسها وهو يمدح المظفر تقي الدين صاحب حماة (٢):

وأهلى مديحى فيك شعرى عن الهوى ومديحك أحلى فى لسانى وفى قلبى  
فشخصك أشهى فى فؤادى وناظرى

وكانه يرد حجة ابن قتيبة من أن الغزل " لائط بالقلوب " وأنه هو ما يستميل إليه النفوس لأن الناس لا يخلو أحدهم من ضارب فيه بسهم إما حلال أو حرام، إذ ثبت له هنا أن شخص المدوح أحلى من المتغزل فيه، والحديث عنه أحلى من الغزل، ولعل هذا أصبح منهجا واضح الملامح فى المديح عند ابن سناء الملك يشرحه بقوله: (٣)

مديحك كالميسك لا يكتتم به يبتدى وبه يختتم  
وما برح المدح بعد النسب وما مذهب شاع بين الأمم  
ومدحك من قبل خلق النسب ونظم القريض وخلق النسب  
صفانك قائمة فى النفوس قديما وثابتة فى القدم  
على أن لي همة فى النسب ولكن مدحك منه أهم  
وإن النسب إذا ما مدحت ويقال ولكنه لا يتم  
وإن النسب يسر النفوس ويذكي العقول ويصفي الشيم  
ولا سيما وهو من عاشق رماه الهوى وبراه السقم

وقد يكون سبب تأخير النسب عنده هو التهيب لا الحب كما قال: (٤)

لمدحك أخرت النسب تهيباً وعندهم أن النسب يقدم

ويتعرض أحيانا لبعض المشكلات النقدية فى ثنايا قصيده كالبعد عن التعقيد وإرسال الكلام عفوا ، طبعيا ، يقول يمدح الوزيرين شكر (٥):

(١) السابق، ص ١.

(٢) السابق، ص ١٢.

(٣) السابق، ص ٣١٥.

(٤) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٢٩٣.

(٥) السابق، ص ٨٢.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

يؤاتيك بالسحر المحلّ هاجراً  
ليحسن ما يأتي به اليوم طبعه  
طرائق تعقيد الكلام المعقد  
وأحسن منه ما يجيئك فى غد

فهو كما ترى يمدحه بالبعد عن تعقيد الكلام وأن أحسن كلام ما يجيء عن طبع  
وقريحة سليمة .

وهو يفخر بنفسه فيعطيها ما مدح به ابن شكر من قبل فهو القائل على البديهة، وفى  
هذا دلالة ضمنية على أن ابن سناء يفضل الطبع على التصنيع والتكلف وإن كانت الأدلة  
المادية من ديوانه بين أيدينا تشهد بغير ذلك يقول (١) :

إني بديهيّ الدموع  
دَمْعِي كَذْهَنِي فِي مَدَا  
عِ وَإِنَّ دَمْعِي لَا يُبَادَهُ  
نَحْ سَيِّدٍ وَلِدْتَهُ سَادَهُ  
وَهُوَ الَّذِي يَجْدِي وَلَمَّا  
جَادَ عَلَّمَنِي الْإِجَادَهُ

وهو يرى أن الشعر من لوازمه جودة الإنشاد، وكأنه يفرق بين الشعر المكتوب والشعر  
المقول فى المحافل وبين الإنشاد الجيد والإنشاد غير الجيد يقول (٢) :

مَحْسِنٌ حَسَنُ الْعُلَا وَيَزِيدُ الْـ  
بَيْتَ حُسْنًا حَلَاوَةَ الْإِنْشَادِ

ونلاحظ أن شعره دائماً موضوع فى مقابلة العطاء من المدوح وكأنهما نظيران  
وصنوان وشبيهان حتى فى عملية الإخراج فهو يحسن العلاء بتحسين العطاء له، وكأن  
العطاء أبيات شعر وكان حسن الأداء إنشاد مطرب.

وهو إذا فخر بالكلام المطبوع اقتضى ذلك ذمه للكلام المتكلف، والتكلف عنده  
موضوع فى مقابلة الطبع (٣) :

تَكَلَّفُوا وَأَتَتْ طَبْعًا مَوَاهِبُهُ  
وَفِي الْبَدَاوَةِ حَسَنٌ لَيْسَ فِي الْحَضَرِ

ويكرر المعنى ذاته فى قصيدة أخرى فيقول (٤) :

(١) السابق، ص ١٠٧ .

(٢) السابق، ص ١١٣ .

(٣) السابق، ص ١٤٣ .

(٤) السابق، ص ١٥٥ .

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

تصنعوا وأتت طبعاً مواهبه      تعطل البدو أحلى من حلى الحضر  
وهو يذم الاختلاق فى المدح ملمحاً إلى أهمية صدق التجربة فى الشعر قائلاً<sup>(١)</sup> :  
إن أمتدحه فمدح غير مختلق      يجرى عليه بير غير مختصر  
ويشير إلى ذلك فى قصيدة أخرى يصور كلامه فى ممدوحه قائلاً<sup>(٢)</sup> :  
فيك كلامى مصحب      وفى سواك شامس

ويشبهه الملوك ووضعهم إزاء الملك الذى يمتدحه بأنهم ملوك مجازاً، فموقعهم منه كموقع المجاز من الحقيقة، أو الكلام المهمل من الكلام المستعمل يقول<sup>(٣)</sup> :  
ملك الملوك حقيقة وهم به      مثل المجاز أو الكلام المهمل

وقضية اللفظ والمعنى من قضايا النقد الأدبي فاللفظ يحمل المعنى والمعنى لا وجود له من غير لفظ يقوم به من خلال علاقة بينهما، وتلك العلاقة التى تكون بين اللفظ والمعنى لقوتها أصبحت مثلاً ورمزاً، تشبه به الوشائج والعلاقات بين الناس والأشياء، يقول ابن سناء الملك<sup>(٤)</sup> :  
وقد أصبحت مذسرت مصر وأهلها      كمعنى بلا لفظ ولفظ بلا معنى

وهى صورة عميقة، فمصر وطن، والوطنية معنى ولأنها معنى فلا يجسدها ولا يبرزها غير لفظ أو شكل تستقل به وتظهر من خلاله، هذا الشكل أو اللفظ هو الممدوح الذى يمثل مصر فتحل فيه ويقوم بها كقيام اللفظ بالمعنى.

وهى صورة عقلية جدلية مع ما فيها من عاطفة لكن العاطفة تتوارى شيئاً ما فى التأثير العقلية العلمية التى تربت على وضع المقدمات واستنباط النتائج، والتعامل مع المسائل العملية والإشكاليات العقلية أكثر من تعاملها مع العواطف، لا سيما وأن العقل كان هو المقدم لأن العصر سياسياً كان يتطلب الحذر والتعقل فى كل الأمور، وتلك خاصية من خصائص الكتابة فى هذا العصر.

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١٥٥.

(٢) السابق، ص ١٨٤.

(٣) السابق، ص ٢٥١.

(٤) السابق، ص ٣٢٤.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وقد يزج ابن سناء الملك بنفسه فى مداخلة نقدية شعرية مع شعراء آخرين كتلك التى داخل فيها عبد الله بن المعتز ومهياراً الديلمى إذ عارضهما بقصيدته (١):

يا قلب مهلك إن ظبيك قد سنج  
ثم يبين فضل قصيدته قائلاً (٢):  
ونظمتها والوزن منها فاتر  
ضافت قوافيها وصدري ضيق  
أضحت على مهيار قبلي ناشزا  
وتتأبعت فتحاتها فتترهت  
فأنت كأن الجمر منها قد لفح  
فلو أنها أنفست كجودك لانفسح  
إن قال عن محبوبه فيها شطح  
عن قول عبد الله حتى نصطح

ولقد حكى صاحب طبقات الشافعية الكبرى هذه المداخلة فقال: "وهذه قافية حلوة أول من بلغنى نظم فيها عبد الله بن المعتز حيث يقول:

خل الزمان إذا تباعد أو جمح  
فى أبيات أنكر عليه قوله فيها:  
واشك الهموم إلى المدامة والقدح  
وإذا تمادى فى العتاب قطعه

وقال مهيار:

ما كان سهما غار بل ظبيا سنج  
فى خده الكافور سبحة عنبر  
وأما ومشيته توقر تارة  
إن لم يكن قتل الفؤاد فقد جرح  
ما كان أغفلى الغداة عن السبح  
صلفا وأحيانا يجن من الفرح

فى أبيات أنكر عليه فيها قوله بطح" (٣) قال صاحب الطبقات " ثم إنه اعترض ابن المعتز ومهيارا بما اعترضهما ووقع هو فى واحدة وهى قوله " لانسح " فإنه لحن" (٤) وهكذا نرى أن علم النقد كان ضمن العلوم التى أسهمت فى بناء عقلية ابن سناء وذاكرته وكانت رافدا من روافد صورته الفنية.

(١) السابق، ص ٥٧.

(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٥٩.

(٣) أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السيكى، طبقات الشافعية الكبرى، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة ١٩٩٢ ط بتحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو، د. محمود محمد الطناحى، ج ٩ ص ١٨٢.

(٤) السابق، ص ١٨٤.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

#### ٤- علم الحديث؛

ومن العلوم التى كان تدريسها شائعاً فى مدارس الأيوبيين، علم الحديث وروايته ومصطلحه فلقد كان صلاح الدين - وهو المؤسس الحقيقى لدولة الأيوبيين - "شديد الكلف بعلوم الدين، وكان يذهب بنفسه لسماع الدروس من أفواه الأئمة المشهورين، وكان يصحب معه أبناءه متنقلاً بهم من مصر إلى الإسكندرية، ليغنم حياة الإمام الحافظ السلفى أو حياة غيره من الأئمة المعروفين كالشيخ تاج الدين المسعودى الذى كان السلطان مدة إقامته بالقاهرة يعين له ميقاتاً لسماع الأحاديث النبوية عنه" <sup>(١)</sup>، وذلك لأن "البيئة التى تعنى بعلوم الدين يحتل الحديث مكان الصدارة، ويستأثر منها بكل عناية" <sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من الاهتمام الشديد بالحديث ودراسته وحفظه؛ لم يتأثر ابن سناء الملك تأثراً كبيراً بمصطلحات الحديث وإدخالها فى صوره الفنية إلا قليلاً بالنسبة إلى غيرها، ولعل السبب فى هذا بعد علم مصطلح الحديث عن الشعر ومقاصده؛ أما بالنسبة للتأثر بالحديث نفسه ونصوصه فقد تأثر به تأثراً كبيراً وضمن كثيراً من الأحاديث فى ثنايا شعره.

فألفاظ دارسى الحديث واصطلاحاتهم، هى التى ظهرت بقلة عند ابن سناء الملك إذا قيست إلى النحو والفقه مثلاً ومن ذلك قوله <sup>(٣)</sup>:

رحلوا وقد فتحوا ولـ      كـن فى فم العين السداده  
فخذوا الحديث عن المدا      مع فهى تروى عن قتاده

فالرواية والحديث وأخذه عن فلان، من اصطلاحات دارسى الحديث وقيادة "هوالتابعى المشهور الذى يروى عن أنس بن مالك رضى الله عنهما" <sup>(٤)</sup>.

(١) د. عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكي، دار الفكر العربى ط ١٩٦٨ ص ١٤٩ .  
(٢) السابق، ص ١٧٥، ولقد خصص الدكتور عبد اللطيف حمزة الكتاب الثالث من المرجع المشار إليه للحديث عن حالة دراسة التفسير والحديث النبوى ومدارسهما فى العصر الأيوبي فليرجع إليه من أراد المزيد .  
(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١٠٦ .  
(٤) السابق، هامش ص ١٠٦ .

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ولا شك فى أن الصورة وموطنها موطن الحديث عن الفراق والدموع التى تصاحبه تتخذ فى البعد العلقى شوطا إذ يصبح الفراق أو الرحيل كأنه الأداة التى يفتح بها فم السقاة أو المزايدة وهذا موطن يكثر فيه تشبيه العيون بالكلى قال ذو الرمة<sup>(١)</sup> :

ما بال عينيك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفريفة سرب

ولكن ابن سناء الملك يجعل دموع عيونه كأنه حديث تتحدث به العيون، ثم يتجانس فى ذهنه الرواية للحديث والرى لماء المزايدة فيجعل ماء المزايدة حديثا، ثم بدلا من كونه يروى العطش يجعله يروى على الألسنة، فتتسلل الصورة من موطنها لتغشى وطننا آخر تستقر فيه وتتشبه به وهو موطن رواية الحديث، لتصبح العين وقد وخرتها "قتادة" أى شوكة فنزل منها الدمع تشبه الحديث الذى يرويه التابعى قتادة رضى الله عنه بجامع الشفاء فى الحديث، والسببية فى الراوى والقيمة الغالية لكل من الدمع والحديث .

وإذا كانت دموع عينه تروى عن قتادة فإن هناك عالما من علماء الحديث تخبر عنه نار قلبه فيورى به وهو شهاب<sup>(٢)</sup> :

فنار القلب تخبر عن شهاب ودمع العين يروى عن قتادة

وما فى البيت من التأثر واضح ، وأما فى قوله<sup>(٣)</sup> :

زارنى طيفها محلى معطر وتخطى كمثلها وتخطر

وحكاها فكان فى النقل عدلا حين أدى عنها وإن كان زور

فهو يتأثر بعلم الجرح والتعديل ، فى المحدثين وصورته هنا ترسم لنا صورة الطيف الذى جاء بشيء من حبيبته وحكى عنها بعض القول، فنقل عنها الاعتدال والعطر والتخطر فى المشية ولكنه زور فى الحديث، فأخذ من علم الجرح والتعديل: النقل – العدل الأداء –

(١) ذو الرمة، ديوانه، بشرح وتعليق زهير فتح الله، ط: أولى، ١٩٩٥، دار صادر للطباعة والنشر بيروت، ٥٩.

(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٣٧٩ وشهاب هو شهاب الزهرى المشهور بابن شهاب، من أجلة علماء الحديث.

(٣) السابق، ص ١٤٥.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

التزوير، وألقى بصورته أو غمسها في وجدانه الذي يشكل الحديث النبوي ودراسته جانباً منه ومن ثقافة صاحبه.

والحديث، والرواة، من اصطلاحات دارسي الحديث ولكنهما قد تسللا إلى الصورة الآتية في مضمار الغزل (١):

وأعشق من قد شاع عن سكر قده حديث تثنى عطفه عن رواته

وورود هذه الألفاظ في صورة موطنها الغزل يدل على تأثره بعلم الحديث ومن مثل ذلك قوله (٢):

ومر بي يروى حديث الأسي فاسمع بعينيك الذي قد روى  
وقوله (٣):

وأما على الخصر الرقيق وإنما قطع الحديث حديثه الموثوق

٥- علم الفلك :

كان علم الفلك ضمن مجموعة من العلوم كالفلسفة والمنطق والرياضيات يطلق عليها علوم الأوائل وتوضع في مقابلة علوم العرب أو العلوم الشرعية خاصة (٤)، وعلم الفلك من العلوم التي اهتم بها العلماء المسلمون، ومن يرجع إلى الكتب التي صنفت في أسماء العلوم مثل الفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة وأبجد العلوم يدرك كيف كان اهتمام المسلمين بعلم الفلك والنجوم (٥).

ولعل اهتمام الفاطميين بالتنجيم كان أكبر من اهتمام غيرهم به لأن دولة الفاطميين قامت على كثير من الأمور الغيبية في معتقداتها، ولعل ما بقي من اهتمام الناس بالتنجيم

(١) السابق، ص ٣٧١.

(٢) السابق، ص ٥٣٤.

(٣) السابق، ص ٢٠٦.

(٤) د. عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، هامش ١ ص ٣٣٣.

(٥) ينظر حاجي خليفة، في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت ج ١ ص ١٠٦، ج ٢ ص ١٦٤٢، وابن النديم في الفهرست، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨ ج ١ ص ٢٨٨.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

في عصر الأيوبيين هو بقايا معتقدات الناس أيام الفاطميين تلك المعتقدات التي حاربتها الدولة الأيوبية السنية بكل ما تستطيع .

فقد كان للناس ولع شديد بالتنجيم ، ومن يقرأ الرسالة المصرية لأمية ابن أبي الصلت يتعرف على تعلق المصريين بالنجوم والمنجمين في ذلك الوقت ، يقول أمية: "والمصريون أكثر الناس استعمالا لأحكام النجوم وتصديقها لها وتعويلا عليها وشغفا بها وسكونا إليها حتى أنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التي لا تنحصر فنونها ولا تحصل أجزاءها وأنهاؤها ، ولا تضبط جهاتها ولا تقيد غاياتها ولا تعدّ ضروبها إلا في طوال يختارونها ونصب يعتمدونها"<sup>(١)</sup> .

وبقيت بقية من تلك الصفة إلى أيام ابن سناء الملك لأن الثقافات لا تنتهي فجأة كما لا تأتي بغتة ، بل تأتي متسللة وتنسحب في هدوء ، فلقد جاء ابن أبي الصلت هذا إلى مصر عام ٥٠٦ هـ أي قبل عصر الأيوبيين بستين عاما تقريبا حيث بدأ عصر الأيوبيين بموت العاضد الفاطمي وتولى صلاح الدين مصر عام ٥٦٧.

ظلت ثقافة النجوم والمنجمين وأحكام النجوم والطوالع والزيجات حتى عصر ابن سناء الملك؛ ولذا وجدنا آثار تلك الثقافة تبرز بكثرة في صوره الفنية؛ من مثل ذلك قوله في مدح المظفر تقي الدين<sup>(٢)</sup> :

ويسهل منها كل مستوعر صعب	ويجلو له البدر المنير مسالكا
يساعده المريخ في حومة الحرب	ويسعده البرحيس في السلم مثلما
ويعجله بالسلس منها وبالسلب	وينحس "كيوان" بلاد عدوه
لإنشاء أخبار البشائر والكتب	ويفتح ديوان السماء عطارد
بيعث سرور النصر للنفس والقلب	وما الزهرة الزهراء إلا مليئة

فالبرجيس هو المشتري وهو كوكب السعد، والمريخ يساعده في الحرب و"كيوان" وهو زحل الذي هو كوكب النحس، ينحس له عدوه ويساعده نحسهم على سلبهم وسل السيوف

(١) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز أبي الصلت، الرسالة المصرية، ضمن نوادر المخطوطات جمع وتقديم الأستاذ عبد السلام هارون وتقديم أ.د محمد زغلول سلام العدد ٧٠ من سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة ص ٤٥ .  
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١٤٥ .

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

عليهم، وأما عطارد الكوكب المعروف من المجموعة الشمسية فهو يبشر بخبر السماء عن انتصاراته، وكذلك الزهرة وتلك صورة فنية فلكية - إن صح التعبير- لما بها من أسماء الكواكب وأعمالها فى معتقدات البشر فى ذلك العصر.

والتنجيم إذا كان لصالح الممدوحين فالشاعر يمتن له ويوافقه، وأما إذا كان بغير ما يريد الممدوح فالشاعر يرمى المنجمين بالكذب والتحريف وهذا هو السائد الشائع فى دولة الأيوبيين السنية يقول ابن سناء الملك ردا على المنجمين (١):

وهذا هو القول المحقق لا الذى يحرفه أهل النجوم من الكذب  
وأسماء النجوم لا تزال تفتحم صور ابن سناء إذ يقول مادحا (٢):

لو رامت الشمس المنيرة شأوه يوم الفخار لعاقها العيوق

والعيوق هو نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها، فهو ينقل المفاخرة من مجالها الأرضى إلى مجال فضائى بين نجمين هما ممدوحه الذى يجعل مكانه دائما فى السماء وبين الأفلاك والكواكب والنجوم والشمس التى هى أبرز ما يراه أهل الأرض من النجوم والعيوق الذى سيقف حائلا دون الشمس لو أرادت أن تفاخر هذا الممدوح؛ فإذا تعارضت أحكام النجوم مع أحكام الممدوح (الحاكم) فإن حكمه على أحكامها يعلو ويبطل ما يدعيه المنجمون يقول: (٣)

سعودك ردت ما ادعاه المنجم  
يبشر بالريح العقيم وإنها  
ويقسم أن الأمر لابد كائن  
وجودك أمن للوجود من الذى  
وقد قيل أحكام النجوم على الورى  
وما برحت حبا تود لو انها  
وقد كذبتة فى الذى كان يزعم  
كما قال - عما قاله - بك تعقم  
وبالأمر قد أحنثته حين يقسم  
عن الريح يحكى أو به النجم يحكم  
وأنت على أحكامها تتحكم  
لناديك تهوى أو لتربك تلتثم

(١) السابق، ص ١٠ .

(٢) السابق، ص ١٤٥ .

(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٢٩٠ .

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وأنت الذي .. وهي التي فى سمائها  
ويلدغ فيها من يعاديك عقرب  
وتحنى لك القوس التي من بروجها  
ولو شئت كانت من هباتك إنما  
تشير إليها من بعيد فتفهم  
ويفرس فيها من يدانيك ضيغم  
فترمى بها الأعداء والشهب أسهم  
لك الشمس دينار لك البدر درهم

فالنجوم والأبراج التى تسبح فى أفلاكها داخله ضمن رعايا المدوح "صلاح الدين" بل هى من جنوده، ألا ترى العقرب يلدغ عدوه، والأسد يفترس من يدنو منه، والقوس تنحني له ليرمي بها أعداءه؟؛ بل لو شاء لكانت هذه الأفلاك من هباته، يهبها من يشاء من معتفيه، لكن الشاعر ينعي على الناس تصديقهم للنجوم وينعي على المنجمين ويدعو عليهم قائلاً: (١)

فسحقاً لعباد النجوم أما دروا  
وبعداً لخدام النجوم أما دروا  
وما خدموا الأفلاك إلا لأنها  
تعلمه والسعد لا يتعلم

(٢) فلقد كذبت الحقائق التاريخية والواقعية ما قاله المنجمون وخوفوا منه الناس فى عام ٥٨٢هـ.

(٣) ومن الألفاظ التى تدل على تصديق النجوم: الإسعاد والسعود والسعد، كقوله:

ولعمري مذ طالعتني بإسعا  
إن حالي بئر معطلة من  
ومثله قوله: (٤)

ولعمري لو طالعتني بإسعاد  
وقوله: (٥)

(١) السابق، ص ٢٩١.

(٢) "كان المنجمون فى هذه السنة يحكمون بخراب العالم فى شعبان عند اجتماع الكواكب الستة فى الميزان بطوفان الريح فى سائر البلدان .. فلما كانت الليلة التى عينها المنجمون ونحن جلوس عند السلطان فى فضاء واسع ونار الشموع المزهرات جامع ، .. ولم يظهر مما قالوا شيء وعمل الشعراء فى ذلك شعرا يزرون عليهم فى حكمهم " الروضتين فى أخبار الدولتين، لأبى شامة شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي، دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م ج ٣ ص ١٧٠ .

(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٨٤.

(٤) السابق، ص ١٠١ .

(٥) السابق، ص ٢٦٧ ومفردة السعد والسعود تتكرر عنده فوق العشرين مرة.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

هلال ولكن السعود منازلـه  
ونهر ولكن البحار جداولـه  
وقوله: (١)

لقد وعدت نجوم السعد طالعة  
فيما ومثلك من أوفى بما وعدا  
وقوله: (٢)

أجرت عليّ نجوم أر ضك فى الهوى أحكامها

وهكذا يتبين أن المجتمع الأيوبي كان فيه من يصدق النجوم ويأتي العرافين وإن كانت سياسة الدولة قد قامت على مقاومة هذا التيار الذي يناقض السنة، ويدعو إلى التواكل والتخلف، وكان لهذا سبب كبير في تقدم المجتمع الأيوبي علمياً، وسياسياً وقد نقل صاحب الروضتين عن العماد الكاتب قوله فى صلاح الدين: "كان يأخذ بالشرع ويعطى به، ولم يكن للمنجم مصغياً، ولم يزل لقوله ملغياً، ولا يتعيف، ولا يتطير، ولا يعين ولا يتخير، بل إذا عزم توكل على الله، فلا يفضل يوماً على يوم ولا زماناً على زمان إلا بتفضيل الشرع" (٣).

#### المطلب الثانى، علوم العصر وأثرها فى صور البهاء زهير:

تكاد الروافد والمؤثرات لا تختلف عند البهاء زهير عما كانت عليه عند ابن سناء الملك فلقد كان الشاعران ربيبي عصر واحد وثقافة واحدة، درسا العلوم نفسها وتأثر كل منهما بما تأثر به الآخر، فما اختلفا إلا فى مقدار ما حصل كل منهما، وفى درجة التأثر بما حصل، من المعلومات التى استوعبها من معطيات عصره.

فإذا نظرنا إلى العلوم الشرعية نجد البهاء قد ألم بها حفظاً ودرسا كصنوه ابن سناء الملك، غير أن البهاء كان يختلف عنه فى درجة الثقافة نفسها إذ تثبت الأدلة من

(١) السابق، ص ٢٦٠.

(٢) السابق، ص ٢٨٦.

(٣) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي، الروضتين، ج ٤ ص ٢٢٣.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

شعريهما أن ابن سناء الملك كان أوسع ثقافة وأكثر إلماماً بالعلوم من البهاء، وفيما يلي نستعرض تأثير البهاء بالعلوم التى تأثر بها ابن سناء الملك للوقوف على هذه الاختلافات.

## ١- النحو؛

ظهرت آثار العلوم الشرعية العربية فى شعر البهاء ومنها علم النحو الذى ظهرت مصطلحاته فى صورته الفنية؛ وذلك كالأفعال والأسماء فى قوله: (١)

وَصَيَّرَ لِي ذِكْرًا جَمِيلًا لِأَنَّيْ أَحْسَنُ أَفْعَالِي لِتَسْمَعَ أَسْمَائِي

فأنت ترى المطابقة بين الأفعال والأسماء، وهو يورى بالأفعال عن سلوكه وتعاملاته ويورى بالأسماء عن محبوبه اسمها أسماء وأظنها رمزاً للممدوح، الذى يرجو عنده الخير.

ومن مصطلحات النحو التى ظهرت فى شعره: الاسم والكنية واللقب، وذلك فى موضع لطيف يتغزل فيه حيث يقول: (٢)

أَشِيرُ لِي بِوَصْفٍ وَاحِدٍ مِنْ صِفَاتِهِ تَكُنْ مِثْلَ مَنْ سَمَى وَكُنَى وَلَقَّبَا

فالاسم والكنية واللقب مما يختص به دارسو النحو، من حيث إن لهذه المصطلحات حدوداً وتعريف بعينها، وهناك مسألة خاصة بجواز تقديم أيها على الآخر (٣).

ومن مصطلحات علم النحو التى أحسن الشاعر استخدامها والتورية بها فى مقام المدح "الاسم الموصول، والصلة والعائد"، كما فى قوله: (٤)

فَمَتَّ كَمَدًا يَا حَاسِدِي فَأَنَا الَّذِي لَهُ صِلَةٌ مِمَّنْ يُحِبُّ وَعَائِدٌ

فتأمل كيف وظف الشاعر المصطلحين "الصلة والعائد" فى الصورة الفنية هنا حيث ورى بهما عن العطاء الراتب أو "الدخل الثابت" كما نقول نحن اليوم.

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٧.

(٢) السابق، ص ٢٨.

(٣) وهذا الموضوع مبسوط فى كتب النحو ينظر مثلاً: شرح شذور الذهب، لابن هشام الأنصاري، بتحقيق عبدالغنى الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق ط، أولى، ١٩٨٤، ج ١/ ٨٠. وكذا شرح ابن عقيل بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢ دار الفكر دمشق ١٩٨٥ ج ١/ ١١٩.

(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ٨٢.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وهذان المصطلحان لما فيهما من لطف التورية يستخدمهما الشاعر فى مواطن متفرقة من مدائحه كما فى قوله: (١)

يَقُولُونَ لِي أَنْتَ الَّذِي سَارَ ذِكْرُهُ  
فَمِنْ صَادِرٍ يُثْنِي عَلَيْهِ وَوَارِدٍ  
هَبُونِي كَمَا قَدْ تَزَعَمُونَ أَنَا الَّذِي  
فَأَيْنَ صِلَاتِي مِنْكُمْ وَعَوَائِدِي  
وقوله: (٢)

وَهُنَّتَ أَبْنَاءَ كِرَامًا أَعَزَّةً  
رَأَيْتَ لَهُمْ مِثْلَ الضَّرَاغِمِ أَشْبِلًا  
صِلَاتُهُمْ فِي الْجَوْدِ أَضَحَّتْ عَوَائِدًا  
وَسَأَلْتُهُمْ فِي النَّاسِ لَنْ يَتَوَسَّلَا  
ومن ذلك قوله: (٣)

جَعَلْتُمْ خَبْرِي فِي الْحُبِّ مُبْتَدَأًا  
وَكُلُّ مَعْرِفَةٍ لِي فِي الْهَوَى نَكْرَهُ  
ويتكرر عنده مصطلح المعرفة والنكرة فى قوله: (٤)

لَسْتُ أَرْضَى لِحَبِيبِي  
وَهُوَ مَعْرُوفٌ وَلَكِنْ  
أَنَّه لِلنَّاسِ يُذَكَّرُ  
هُوَ مَعْرُوفٌ مُنْكَرٌ  
ومنه أيضا قوله: (٥)

صَحْبِيَّةٌ وَلَمْ يَكُنْ نَظِيرِي  
قَدَّمْتُهُ وَهُوَ يَرَى تَأْخِيرِي

ومما يتصل بعلم النحو علم الصرف ومصطلحاته ولعلهما لم يكونا قد انفصلا بعد، فمن مصطلحات علم الصرف التى وردت فى شعره مصطلح "التصغير" و"التكثير" فى قوله: (٦)

نَقَصْتُ إِذْ جَعَلْتُهُ تَكْثِيرِي  
كَمَا تَزَادُ الْبِئَاءُ فِي التَّصْغِيرِ

(١) السابق، ص ٨٤.

(٢) السابق، ص ٢٠١.

(٣) السابق، ص ٩١.

(٤) السابق، ص ١٠٩.

(٥) السابق، ص ٩٢.

(٦) البهاء زهير، ديوانه، ص ٩٢.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ومن المصطلحات كذلك أنواع الفعل وتقسيمه من حيث الزمان إلى مستقبل وماض فالشاعر يورى بهذه المصطلحات كما فى قوله: (١)

أَمَلِي فِيكَ دُونَهُ سَيْفٌ لَحْظٌ ذَاكَ مُسْتَقْبَلٌ وَهَذَاكَ مَاضِي  
فالأمل مستقبل ، والسيف ماض بمعنى قاطع.

وكذا باب العطف وحروفه ينقلهما الشاعر من النحو إلى الغزل فالواو هنا واو الصدغ وهى الخصلة المتوية على خد الفتاة ، وهو يطلب من هذه الواو إذ أشبهت واو العطف أن تعطف محبوبه عليه حيث يقول: (٢)

عَسَى عَطْفَةٌ لِلْوَصْلِ يَا وَאוَّ صُدْغِهِ عَلَيَّ فَإِنِّي أَعْرِفُ الْوَاوَّ تَعَطْفُ  
وكما طلب من الواو أن تعطفه يطلب من الألف أن تكون ألف وصل فتصله بحبيبتة ثم يطلب منها أن تحذف من بينهما كما تحذف ألف الوصل هذه فى النطق أو فى الخط العروضى يقول: (٣)

يَا أَلْفًا مِنْ قَدِّهِ أَقْبَلْتُ بِاللَّهِ كَوْنِي أَلْفَ الْوَصْلِ

والملاحظ أن ابن سناء أكثر تأثرا بالنحو ومسائله؛ من البهاء زهير؛ فظهور النحو عنده أكثر فى الصور الفنية، حيث إنه ورى بأسماء كتب كالكامل للمبرد، وهذا غير موجود فى شعر البهاء، وكذلك بالمعرب والمبنى، والحرف المشدد، والنعت والإضافة، وإن كان البهاء أحسن توظيفا للتورية بهذه المصطلحات فى الشعر، لأنك لا تكاد تظنه يريد المصطلح النحوي.

## ٢- الفقه:

ومن العلوم الشرعية التى تأثر بها البهاء زهير كما تأثر بها ابن سناء الملك علم الفقه الذى عرفه ومارسه دراسة وعملا وتأثر به فى صياغة صورته الفنية فى شعره من نحو قوله: (٤)

أَحْبَابُنَا إِنِّ الْمَشِيبَ لَشَارِعٌ سَيَنْسَخُ أَحْكَامَ الصَّبَابَةِ وَالصَّبَا

(١) السابق، ص ١٤٨.

(٢) السابق، ص ١٦٥.

(٣) السابق، ص ٢١١.

(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ٣٢.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

"والناسخ والمنسوخ من أجل المباحث في علوم القرآن وعلوم الحديث وعلم أصول الفقه وله صلة كبرى بالتشريع"<sup>(١)</sup> والشارع، والنسخ، والأحكام: من ألفاظ الفقهاء، حيث إن الشارع يقصد به الله عزوجل، الذي يشرع الشرع وينزل الكتاب وينسخ الأحكام والشاعر يشبه المشيب بالشارع في عملية النسخ لأنه ينسخ (أحكام الشباب) ويعنى بها ما يصاحبه من اللهو واللعب، وإن كان الكاتب لا يقر البهائم على هذا التشبيه، فلا يجوز أن يشبه المشيب بالشارع، وكان يمكن أن يأتي لفعل النسخ بأى ناسخ كنسخ الشمس الظل، أو نسخ "إن" حكم المبتدأ.

وموضوع الناسخ والمنسوخ، ونسخ القرآن بالسنة والسنة بالقرآن باب واسع من أبواب علوم القرآن؛ مما يبدو أن الشاعر قد ألم بطرف منه وتأثر به حيث يقول أيضا:<sup>(٢)</sup>

أَبْدَأُ حَدِيثِي لَيْسَ بِإِلَّ مَنَسُوحٍ إِلَّا فِي الدَّفَائِرِ

وهي تورية، فالحديث يمكن أن يراد به: الحديث النبوي الشريف، غير أن الشاعر يقصد الحديث بمعنى الكلام المعهود عند الناس، و"المنسوخ" يحتمل أن يكون بمعنى المزال الذي أزيل حكمه أو بطل العمل به، ويمكن أن يكون "المنسوخ" بمعنى المنقول كتابة على الورق. ومن المسائل الفقهية مسألة قراءة القرآن من ذى الجنابة<sup>(٣)</sup>، فالقرآن الكريم تمتنع قراءته على الجنب حتى يطهر؛ إذ الطهارة شرط في مس المصحف، والبهائم عندما أراد أن يصف عبور صاحبه وعدم تعريجه عليه استلهم هذه الصورة من دروس الفقه حيث يقول:<sup>(٤)</sup>

وَكُنْتُ كَسُورَةِ الْإِخْلَاصِ لَمَّا عَبَّرْتَ وَكُنْتَ أَنْتَ كَذِي جَنَابِهِ

فقد شبه نفسه بسورة الإخلاص وشبهه الذي أشاح بوجهه عنه بذى الجنابة.

(١) القاضى أبى بكر ابن العربى، الناسخ والمنسوخ، فى القرآن الكريم، وضع حواشيه الشيخ زكريا عميرات، منشورات محمد على بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ط أولى ١٩٩٧ ص ٣.

(٢) البهائم زهير، ديوانه، ص ١٢٤.

(٣) المسألة مبسوطه فى كتب الفقه وقد عرضها الإمام القرطبي بالتفصيل فى تفسير قوله تعالى: "لا يمسه إلا المطهرون" من سورة الواقعة وذلك فى تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم، طبعة دار الشعب، القاهرة، ط ٢، بتحقيق أحمد عبد العليم البردوني، ج ١٧ ص ٢٢٧.

(٤) البهائم زهير، ديوانه، ص ٣٥.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ومن الأمور التي يعرفها طلاب العلم الشروح والمختصرات وتلك وإن كانت لا تختص بالفقه دون غيره فقد أثبتته في الفقه من باب التغليب، يقول البهاء: (١)

وَأَعِينُ عِنْدَ التَّشَاكِي طَافِحَهُ إِذَا إِخْتَصَرْنَا فَالْدُمُوعُ شَارِحَهُ

فالعيون تشرح ما يمكن أن يختصر من الكلام ساعة الوداع، لأن المقام ضيق والكلام قليل ولكن لغة العيون تشرح بإسهاب ما يمكن أن يكون مختزلاً في النفس من الكلام والشروح والمختصرات كانت ظاهرة علمية تميز بها عصر الأيوبيين والماليك من بعدهم حيث جمعت كتب السلف وقتلت دراسة وتفسيراً واختصاراً فكانت الكتب يصنع عليها حواش، وتصنع على الحواشي تعليقات، وتقریطات، وذلك أمر معروف في هذا العصر ومن تأثره بقراءة الشروح والمختصرات أيضاً قوله: (٢)

وَلَمْ أَنْلْ مِنْكُمْ شَيْئاً سِوَى تَهُمِ نَقَالَ مَشْرُوحَةً فِينَا وَمَخْتَصَرَهُ

ومن دروس الفقه أيضاً وجوب الغسل على ندى الجنابة، وتأمل كيف أوجب الشاعر الغسل من سماع كلام حبيبته التي يتغزل فيها حيث يقول: (٣)

وَأَفْظُ يُوْجِبُ الْغَسْلَ عَلَى السَّامِعِ وَالْحَدَّاءِ

فتأمل كيف يوجب سماع كلامها الغسل والحد...؟!؛ ومن ألفاظ الفقهاء وعباراتهم "مسألة فيها نظر"، ولقد تأثر الشاعر بعباراتهم، مما يدل على مدارسته وقراءته للفقه، وذلك حيث يقول: (٤)

فَدَعَنِي مِمَّا يَقُولُ الْوُشَاةُ فَتِلْكَ الْأَقَاوِيلُ فِيهَا نَظَرُ

فأقوال الوشاة لا ينبغي أن يؤخذ بها، وإن أخذ بها فلا ينبغي أن تزيد على كونها مسائل خلافية فيها نظر كمسألة حكم فيها فقيه؛ ولكن فقيهها آخر كان له رأى يبطل أو يرجح رأى ذلك الفقيه؛ ومن دروس الفقه وأبوابه "باب اليمين" حيث تنقسم اليمين إلى

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ٥٩.

(٢) السابق، ص ٩١.

(٣) السابق، ص ٦٩.

(٤) السابق، ص ١٢٦.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

أربعة أقسام: هي البر والحنث واللغو والغموس، وقد وجد في شعر البهاء ما يدل على هذا التأثير حيث يقول البهاء: (١)

حَلَفْتُ لَكُمْ يَوْمَ النَّوَى وَحَلَفْتُمْ بِكُلِّ يَمِينٍ لِلْمُحِبِّ غَمُوسٍ (٢)

واليمين من الأمور التي لها حضور دائم في نفس البهاء وشخصيته فهو كثير الحلف في المواقف المختلفة، من مثل قوله: "والله، وحقك، وحياتك، وعيشك وعينيك .. إلخ".

ومن مصطلحات أصول الفقه: الفرض، والسنة وهما من دروس الفقه المعروفة وقد تأثر الشاعر بذلك في قوله: (٣)

وَلِلنَّاسِ عَادَاتٌ وَقَدْ أَلْفُوا بِهَا لَهَا سُنَنٌ يَرَعُونَهَا وَفَرُوضٌ وَيَشْبَهُ الشَّاعِرِ التَّقْدِيمَ لِلْمَدْحِ بِالْغَزْلِ الرَّقِيقِ، بِالنَّفْلِ قَبْلَ الْفَرْضِ إِذْ يَقُولُ: (٤)

مَهَّدْتُ بِالْغَزْلِ الرَّقِيقِ لِمَدْحِهِ وَأَرَدْتُ قَبْلَ الْفَرْضِ أَنْ أَتَقَفَلَا

٢- الحديث:

والحديث من العلوم التي كانت على أيامهم ما تزال تدرس في المساجد والحلقات العلمية وما زال طلاب العلم يتدارسونه؛ لأنه يصلهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ألم الشاعر على بقسط وافر من دراسة الحديث، فتأثر بمصطلحاته كما في قوله: (٥)

يُرَوِّي النَّدَى أَبَدًا فَلَا يُرَوِّي لَهُمُ إِلَّا صَاحِبَهُ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: (٦) (٧)

(١) السابق، ص ١٤٤.

(٢) "عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمس ليس لهن كفارة الشرك بالله وقتل النفس بغير حق وبهت مؤمن والفرار يوم الزحف ويمين صابرة يقتطع بها مالا بغير حق" وهي الغموس التي سأل عنها سيدنا عبد الله بن عمر في رواية أخرى رسول الله: "وما اليمين الغموس قال الذي يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب" ينظر نيل الأوطار للشوكاني، دار الجبل، بيروت ١٩٧٣ ج ٩ ص ١٣٢.

(٣) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٤٩.

(٤) السابق، ص ٢٢٥.

(٥) السابق، ص ٥٦.

(٦) "الحديث الصحيح ما سلم لفظه من ركافة ومعناه من مخالفة آية أو خبر متواتر أو إجماع وكان رواية عدل وفي مقابله السقيم" ينظر: التعريفات، على بن محمد بن علي الجرجاني، بتحقيق إبراهيم الإبياري دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ ج ١/١١٣.

(٧) البهاء زهير، ديوانه، ص ٦١.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

حَيَاتِي وَصَبْرِي مُذْ هَجَرْتُمْ كِلَاهُمَا غَرِيبٌ وَدَمْعِي لِلْغَرِيبِينَ يَشْرَحُ

فحياته غريبة ووجه غرابتها استمرارها بعد رحيل أحبته، وصبره أيضا غريب فمثل هذا الموقف لا يصبر عليه، وبما أنهما غريبان، فهما يحتاجان لشرح والدمع هو الذي يتولى ذلك، فتأمل كيف سحب الشاعر الغرابة من مدلولها المعروف لدى الناس جميعا إلى ما هو خاص بدارسي مصطلح الحديث (١).

ومن تأثره بالحديث ومصطلحه أيضا قوله: (٢)

وَقَدْ شَهِدَ الْمِسْوَاكُ عِنْدِي بِطَيْبِهِ وَلَمْ أَرَ عَدْلًا وَهُوَ سَكَرَانٌ يَطْفَحُ

فهو يستخدم هنا لفظ "عدل" (٣) والعدالة من مصطلحات "علم الرجال" أو "الجرح والتعديل" وهو أيضا داخل في المصطلحات الخاصة بدارسي الحديث، فالسواك عدل أى معدول مستقيم ليس فيه عوج من الناحية الشكلية، ولكن الشاعر لما تخيله شاهدا على طيب فم محبوبته، جعل استقامته وعدالته ليست فى شكله بوصفه سواكا ولكن فى خلقه بوصفه شاهدا، ثم أحدث الشاعر المفارقة بادعاء الاستغراب من كون المسواك عدلا مستقيم الخلق مع كونه سكره والواضح أن سكر المسواك من خمريق حبيبته. ومن تأثره بمصطلح الحديث قوله: (٤)

وَأَضْحَى نَسِيمُ الرَّوْضِ يَرُوي حَدِيثَنَا فَيَا رَبُّ لَا تَسْمَعْ وُشَاءَ وَحَسَدُ

فالرواية للحديث معروفة، وهو هنا يستعيرها أو قل يورى بها عن تسمع نسيم الروض لكلام العاشقين، واختلاط الكلام بالنسيم وممازجته له، ثم سيرورته فيه، كأن

(١) "الغريب من الحديث ما يكون إسناده متصلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن يرويه واحد إما من التابعين أو من أتباع التابعين" ينظر: التعريفات، ٢٠٨/١.

(٢) البهاء زهير، ديوانه، ص ٦٢.

(٣) "العدل عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط وفي اصطلاح النحويين خروج الاسم عن صيغته الأصلية إلى صيغة أخرى وفي اصطلاح الفقهاء من اجتنب الكبائر ولم يصر على الصغائر وغلّب صوابه واجتنب الأفعال الخسيسة كالأكل في الطريق والبول على قارعتها" ينظر: التعريفات ١٩١/١.

(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ٨٥.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

كلامهما الحديث النبوي ، وكأن النسيم فى صدق أخذه وروايته راو من رواة الحديث. ومن ذلك أيضا قوله: (١)

مَلِكٌ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ وَجَدَّهُ      سَنَدٌ لَعَمْرَاكَ فِي الْعَلَا لَا يُلْحَقُ

فالممدوح لما كان نسبه شريفا، ومجده وراثته، وذكره الطيب السيار فى الناس والبلاد مشابها لما كانت عليه سيرة آبائه وأجداده، صارت أفعاله وكأنها تروى للناس سيرتهم وتقص على الناس أحاديث مجدهم، وهذا الأمر متصل منه بهم صاعدا فصاعدا فهو سند فى العلا لا يلحق؛ والشاعر لما أراد صدق التحديث فى صفاتهم وفعالهم، جعلها مروية على طريقة الحديث المسند الذى يتصل سنده بالنبي صلى الله عليه وسلم لكى لا يشكك فى صدق تحديث هذا الملك عنهم؛ ولذا استعمل الشاعر ألفاظ المحدثين مثل "يحدث عن" و"سند" (٢).

ومن ألفاظ الحديث التى وردت فى صور البهاء أيضا قوله: (٣)

وَلِي فِيهِ قَلْبٌ بِالْغَرَامِ مَقِيدٌ      لَهُ خَيْرٌ يَرُويهِ دَمْعِي مُطْلَقًا

فتأمل كيف جعل الشاعر قلبه مقيدا بغرامه ، لا يستطيع أن يفارقه إلى غيره، مما جعل هذا القلب يشتهر بحبه، فعرف خبره، والخبر يعد نقطة التحول فى البيت من الصورة الغرامية إلى الصورة الحديثية، حيث إن الشاعر لما قال "له خير" انتقل فكره إلى أن الخبر لا بد له من راو يرويه فكان أن تسللت صورة رواية الحديث لأنها أظهر فى كيفية الرواية والتحديث من غيرها من صور النقل، ثم كان هذا الراوي من النوع الذى لا يكذب عادة وهو الدموع؛ ومن ثم كان استعمال الشاعر كلمات: "مقيد" "خير" يرويه" "مطلقا" (٤).

(١) السابق، ص ١٧٦.

(٢) "والسند: عبارة عن الرواة لمعرفة أحوالها نصف علم الحديث على ما لا يخفى" ينظر: أبجد العلوم صديق بن حسن القنوجي، بتحقيق عبد الجبار ذكار، بيروت ١٩٧٨، ج ٢ ص ٦١ .

(٣) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٧٨.

(٤) "والمقيد هو الذى يقيد بحادثة معينة والمطلق ضده ويهتم بهذين النوعين من الحديث علم يقال له "علم تلفيق الحديث وهو علم يبحث فيه عن التوفيق بين الأحاديث المتنافية ظاهراً إما بتخصيص العام تارة أو بتقييد المطلق أخرى أو بالحمل على تعدد الحادثة إلى غير ذلك من وجوه التأويل" أبجد العلوم ٢٠٢/٢

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ومن ألفاظهم التي وصف الشاعر بها قلبه أيضا مقيد ومسلسل كما في قوله: (١)

الْقَلْبُ فَيْكَ مُقَيَّدٌ      وَالدَّمْعُ فَيْكَ مُسْلَسَلٌ

وهي صورة تكاد تكرر الصور السابقة لولا اختلاف المصطلح. ومن مصطلحاتهم التي وردت عنده أيضا "مسند" و"مسلسل" كما في قوله: (٢)

يُرَوِّى حَدِيثُ الْجَوْدِ عَنْهُ مُسْنَدًا      فَعَلَّامٌ تَرْوِيهِ السَّحَائِبُ مُرْسَلًا

فالجود هنا يشبه الحديث المسند (٣) أى أنه متصل الإسناد بالمدوح، ولكن السحائب تروي عنه غيثا مرسلا، أى كثيرا متواصلا فتأمل.

وتأمل هذه الصورة كيف تتأثر متأثرا واضحا بعلم مصطلح الحديث، وكأنه يصنعها في جو من دراسة الحديث ويتوجه بها إلى طلابه ودارسيه، يقول البهاء: (٤)

سَلُّوا دَمْعَ عَيْنِي عَنْ أَحَادِيثِ لَوْعَتِي      لَتَعْرَبَ عَنْ تِلْكَ الشُّؤْنِ شَوْوُنِي

فَلِلدَّمْعِ مِنْ عَيْنِي مَعِينٌ يَمُدُّهُ      فَإِنْ تَسَأَلُوهُ تَسَأَلُوا ابْنَ مَعِينِ

عَلَى أَنْ دَمْعِي لَا يَزَالُ يَخُونُنِي      وَمَنْ ذَا الَّذِي يَرَوِّي حَدِيثَ خَوْوُنِ

فَلَا تَقْبَلُوا لِلدَّمْعِ عَنِّي رَوَايَةَ      فَلَيْسَ عَلَى سِرِّ الْهَوَى بِأَمِينِ

فتأمل كيف جعل الشاعر للوعة أحاديث، يرويها للناس دمعها، شؤونه عن شؤونه "وشؤون" الأولى بمعنى مجارى الدمع (٥) والثانية بمعنى الأحوال والخطوب، فالعروق التي يجرى فيها الدمع من الرأس إلى العين - كما هو فى لسان العرب - تمد العين بمعين لا ينضب

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ٢٠٧.

(٢) السابق، ص ٢٢٥.

(٣) المسند من الحديث خلاف المرسل وهو الذي اتصل إسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ثلاثة أقسام المتواتر والمشهور والأحاديث ينظر: التعريفات ١/ ٢٧٣؛ و"المرسل من الحديث: ما أسنده التابعي أو تبع التابعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم من غير أن يذكر الصحابي الذي روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم كما يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" ينظر: التعريفات ١/ ٢٦٨.

(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ٢٧٦، ٢٧٧.

(٥) "والشأن: مجرى الدمع إلى العين، والجمع أشئون وشؤون... الليث: الشؤون غروق الدموع من الرأس إلى العين" اللسان مادة "شأن".

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

من الدموع، والمعين<sup>(١)</sup> في هذا الجو المتأثر بالحديث جره إلى ذكر راو من رواية الحديث هو يحيى ابن معين<sup>(٢)</sup>، فشبه به دمعته في صدق حديثه. فالدمع حين يحدث عن "اللوعة كأنه" ابن معين" حين يروى حديثاً نبوياً، ولكن الشاعر يرجع عن ذلك إذ الدمع يسبق إرادة الإنسان فيبتدره مع الرغبة في حبسه وتلك عادة أصحاب القلوب الرقيقة التي أودعها الله الرحمة والحنان، ولكن العادة جرت على وصف هذا الفعل من الدموع بالخيانة، فالخيانة هنا استعارة لنزول الدمع مع الرغبة في كتمانها، ولكن الشاعر يأخذ الخيانة من معناها هذا إلى الخيانة المعهودة لدى دارسي الحديث وهي من التجريح الذي لا يؤخذ ممن يتصف به حديثاً، ثم يقارن بين دمعته وخيانتها وبين ابن معين وأمانته، ثم يستمر الشاعر في عرض صورته وكأنه يلقي درساً في مصطلح الحديث على نحو ما ترى.

#### ٤- الفلك:

وكما تأثر ابن سناء الملك بعلم الفلك وظهرت في صورته الفنية صور لكواكب ونجوم ومجرات، وظهر أثر اعتقاده في النجوم سلبياً برد ما يمكن أن يقال من تأثيرها في حياة الناس أو إيجاباً بوجود ما يؤيد اعتقاد الشاعر في صدق ما يمكن أن يتحدث به المنجمون كذلك تأثر البهاء زهير بذلك مما يدل على أن هذا الأمر كان من المركبات الثقافية لهذا العصر وأنه قل أن لا يتأثر به أحد، فقد ظهرت آثار علم الفلك، والتنجيم في صور البهاء زهير الفنية من مثل قوله:<sup>(٣)</sup>

وَتَفَرَّعَتْ لِلْمَجْدِ مِنْكَ ثَلَاثَةٌ      كَثَلَاثَةِ الْجَوَازِ فِي جَنَابَتِهِ

(١) "والمعِين: الماء السائل، وقيل: الجاري على وجه الأرض، وقيل: الماء العذب الغزير، وكل ذلك من السهولة" مادة "معن".

(٢) "يحيى بن معين بن عون الغطفاني البغدادي أحد الأئمة الأعلام... قال ابن المديني ما أعلم أحدا كتب ما كتب يحيى بن معين، وقال الخطيب كان إماماً ربانياً عالماً حافظاً ثبتاً وقال عباس الدوري عن يحيى بن معين لو لم نكتب الحديث من ثلاثين وجهاً ما عقلناه وقال عبيد الله القواريري قال لي يحيى القطان ما قدم علينا مثل هذين الرجلين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وقال أبو عبيد القاسم بن سلام ربانيو الحديث أربعة فأعلمهم بالحلل والحرام أحمد بن حنبل وأحسنهم سياقاً للحديث وأداء له علي بن المديني وأحسنهم وضعاً لكتاب ابن أبي شيبة وأعلمهم بصحيح الحديث وسقيمه يحيى ابن معين مات بالمدينة سنة ثلاث ومائتين وحمل على سرير النبي صلى الله عليه وسلم، وله نحو سبع وسبعين سنة". ينظر: طبقات الحفاظ، للسوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤٠٣هـ ص ١٨٩.

(٣) البهاء زهير، ديوانه، ص ٤٤، "وبهرام اسم المريخ وإياه عنى القائل أما ترى النجم قد تولى وهم بهرام بالأقول وقال حبيب بن أوس: له كبرياء المشتري وسعوده وسورة بهرام وظرف عطار" مادة بهرام

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبيهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

مِن كُلِّ مَهْدِيٍّ غَدَا فِي مَهْدِهِ      يَسْمُو إِلَى أَسْلَافِهِ بِسِمَاتِهِ  
أَفْضَى إِلَيْهِ الْمُشْتَرَى بِسُعودِهِ      وَأَعَاذَهُ بِهَرَامٍ مِنْ سَطَوَاتِهِ

وهو يقصد بالثلاثة أولاد الممدوح، وهو يشبههم في تطوافهم حوله وانتظامهم بثلاثة الجوزاء التي يقال لها النظمة<sup>(١)</sup>؛ فهؤلاء الأولاد ورثوا المجد وتفرغوا له؛ فورود مثل هذه الأسماء يدل على أنه طاف بعلم الفلك وألم بشيء غير قليل منه؛ لأن الفلك والنجوم ومعرفة أحوالها ومنازلها؛ كانت من التركيبات الثقافية الشائعة أيام البهاء زهير بل منذ أيام الفاطميين كما ذكرت آنفاً، ولعل الاستعارات التي يوقعها الشاعر على المشتري وبهرام تدل على إحساسه بحياة هذه الكواكب في نفسه.

ومما يدل على معرفته بالفلك أيضاً تشبيهه لحبيبه في تغييره وعدم استقراره على حال واحدة بالزهرة تارة وبالمريخ أخرى كما في قوله: (٢)

هُوَ كَالزُّهْرَةِ وَالْمَرِيخِ فِي لَيْلٍ وَسَيْدِهِ

كما أن الشاعر يعرف حركات النجوم والكواكب، ويعرف المبطئ من السريع منها كما يدل على ذلك قوله: (٣)

وَمَا عَلَى الْبَدْرِ إِذَا      أَسْرَعَ إِنَّ أَبْطَا زَحَلٍ

فليس على البدر من إثم في إسرعه إذا أبطأ زحل، ولعله يقصد بالبدر نفسه وبزحل غيره ممن يبطن بهم الحظ عن أن ينالوا مثل ما نال.

والشاعر يصور ممدوحه في حال عزمه واتقاد همته إذا ركب جواده للجهاد وصناعة المجد بأنه ظمآن يسرع إلى نهر المجرى، وهو هنا يشبه المجرى بالنهر ويريد للممدوح شراباً منه لما في ذلك من بعد الهمة وعلو صورة الممدوح وسمو الماء الذي ينبغى أن يشرب منه فما

(١) "والنظم الثريا على التشبيه بالنظم من اللؤلؤ... ابن الأعرابي: النظمة كواكب الثريا. الجوهري: يقال لثلاثة كواكب من الجوزاء نظم" اللسان مادة نظم".

(٢) البهاء زهير، ديوانه، ص ٦٨.

(٣) السابق، ص ٢١٢.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ينبغي له أن يشرب من ماء الأرض بل ينبغي له أن يشرب من ماء مخصوص هو النور الذي يشبه الماء في نهر المجرة يقول الشاعر: (١)

وَإِذَا اسْتَقَلَّ عَلَى الْجَوَادِ كَأَنَّهُ ظَامٍ وَقَدْ ظَنَّ الْمَجْرَةَ مَوْرِدًا

ومصر إذا عاد إليها المدوح أشرق أقطارها فإذا هي منيرة، ترسل أشعتها لتنير الدنيا من حولها حتى أنها لتنير المجرة ليجد شعاعها مطرعا فوق المجرة، كما في قول الشاعر: (٢)

وَقَدْ أَشْرَقَتْ أَقْطَارُهَا فَأَعْتَدَى لَهَا شُعَاعٌ لَهُ فَوْقَ الْمَجْرَةِ مَطْرَحٌ

ولعلك تلاحظ كيف جعل مصر هي الأعلى من المجرة بهذه الصورة حيث إن الشعاع يسير من الأعلى إلى الأسفل ويهبط من المنير على المظلم، فكأن المجرة نفسها مظلمة أضاءتها مصر.

كما أن همة الشاعر في علوها وبعدها أعلى من زحل "وكيوان زحل"، حتى أن النجم إذا أراد أن يلحقها تحير لعلوها وارتفاعها عنه كما يقول البهاء زهير: (٣)

ذُو هِمَّةٍ كَيَوَانٌ دُونَ مَقَامِهَا لَوْ رَامَهَا النَّجْمُ الْمُئِيرُ تَحِيرًا

فقد رأيت كيف يجعل مدوحه في هذه الصورة العلوية، وهذا ومثله قليل عند البهاء ولكنه كثير كثرة الرمل عند ابن سناء الملك، الذي يعتمد على الصورة الفلكية اعتمادا كبيرا في أخذ صورته الفنية منها.

إذا كان البهاء زهير قد تأثر بالفلك، فإن مما يرتبط بالفلك ارتباطا وثيقا ما يتعلق بالتفاوت والتشائم والسعد والنحس، وما إلى ذلك من قراءة الطوالع التي تعتمد على النجوم وبيان ارتباط سعد الإنسان ونحسه بحركة النجوم وهذا النوع من المعرفة كان شائعا كما قلنا قبل الأيوبيين بشكل كبير، ولكن الأيوبيين السنيين قضاوا نسبيا على هذه المعتقدات فقد كان صلاح الدين وهو رئيسهم لا يعول على النجوم كما ذكرت من قبل.

وقد ظهر شيء من أثر هذه الثقافة على البهاء زهير وصوره الفنية كما في قوله: (٤)

وَلِي لَيْلَةٌ طَرَقَتْ بِالسُّعُودِ فَحَدَّثَ بِمَا شِئْتَ عَنْ لَيْلَتِي

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ٧١.

(٢) السابق، ص ٦٤.

(٣) السابق، ص ٩٨.

(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ٤٦.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

فليلته مطروقة بالسعود ، تطلع نجومها وكواكبها من مطالع السعد، والشاعر متفائل.  
ومن ذلك أيضا قوله: (١)

أنا بالفراق مروع أبدا      ذا طالعي منه وذا نجمي  
يا قمرًا منذُ غابَ عني      لم يتصل بالسعود نجمي (٢)

فهو يربط حظه العاثر بغياب قمره أى حبيبته ، التى منذ رحلت لم يطلع نجمه من مطالع السعد، ومعروف أن ضد السعد النحس فما دام نجمه لم يتصل بالسعود فإن النحوس هى حظه، وفى ذلك كما ترى تعويل على النجوم .  
ويقول البهاء عن دولة من الدول: (٣)

دولةً كم قد سألنا      ربنا التعويض عنها  
وفرحنا حين زالت      جاءنا أنحس منها

وهذا الشعر سياسى فى مضمونه، ولكن الشاعر يربط زوال دولة أو قيام أخرى بالنجوم أيضا، فهى دولة نحس، والتى جاءت من بعدها أنحس منها .  
ولعل الأدل على تأثره بالتنجيم واعتقاد الناس فيه وتسرب شيء من ذلك إلى البهاء زهير قوله: (٤)

بلاد بلقياك استقامت نجومها      فصرن سعوذا بعدما كن نحسا

ولكنى مع ذلك أزعم أن البهاء زهير كان تأثره بذلك لا يزيد على كونه مجارة للواقع الاجتماعى ولم يكن له تأثير فى معتقده وإيمانه بالله تعالى وتوكله عليه، ولعلك تلاحظ شيئاً من الكلفة فى ظهور هذه التأثيرات مما يدل على سطحيته وعدم عمقها فى قلب الشاعر

(١) السابق، ص ٢٣٩ .

(٢) السابق، ص ٢٣٤ .

(٣) السابق، ص ٢٨٨ .

(٤) السابق، ص ١٣٩ .

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وإيمانه، فهي في المدح مجاملة وفي الغزل تطرف ودعابة؛ وربما كان رأيه الصادق في مثل هذا الأمر قوله: (١)

لَا تَرَقُبِ النِّجْمَ فِي أَمْرٍ تُحَاوِلُهُ      فَاللَّهُ يَفْعَلُ لَا جَدِيٍّ وَلَا حَمَلٍ  
مَعَ السَّعَادَةِ مَا لِلنَّجْمِ مِنْ أَثَرٍ      فَلَا يَغْرُكَ مَرِيخٌ وَلَا زَحَلٌ  
الْأَمْرُ أَعْظَمُ وَالْأَفْكَارُ حَائِرَةٌ      وَالشَّرْعُ يَصْدُقُ وَالْإِنْسَانُ يَمْتَلِئُ

فهذا الكلام أدل على نفسية البهاء وعقيدته وفيه يظهر صدق عقيدته ، وصفائها وعدم اكراته بالنجوم ، ولا اعتقاده بنفعها أو ضررها حتى أن هذا الصدق قد يخالطه في الدعابة في موطن الغزل عندما يصف حبيبته بأنها نجم ثم يطلب من نفسه - على سبيل التجريد- أن لا يصدقها لأن النجوم تغرولا تصدق كما في قوله: (٢)

وَلَا يَغْرُنْكَ مِنْهُ حُسْنُ مَنْظَرِهِ      فَقَدْ يُقَالُ بِأَنَّ النِّجْمَ غَرَارٌ

٥- النقد الأدبي:

وكما ظهرت قضايا النقد الأدبي عند ابن سناء الملك وتأثر بها ، فكذلك تأثر البهاء زهير بالنقد الأدبي وقضاياه ، ولكن الحق أن البهاء كان لا يأبه كثيرا بقضايا النقد الأدبي ولا يراها مجدبة مع الطبع ولكنه على أية حال ألم بها قراءة واختار لنفسه منها ما يلائم طبعه وذوقه وظهرت آثار قراءته النقدية في شعره من مثل قضية اللفظ والمعنى وملاءمة اللفظ للمقام ، كما يدل على ذلك قوله: (٣)

فَمَا كُلُّ لَفْظٍ فِي خُطَابِكَ يُرْتَضَى      وَمَا كُلُّ مَعْنَى فِي مَدِيحِكَ يَصْلُحُ

وكذلك تقسيمه الكلام إلى نظم ونثر، وذلك شائع لدى النقاد والكتاب وهو أكثر في بيئاتهم منه في بيئات غيرهم كما في قوله: (٤)

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ٢١٨.

(٢) السابق، ص ١١٣.

(٣) السابق، ص ٦٤.

(٤) السابق، ص ٩٩.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

أَلَا فَلَيْقُلْ مَا شَاءَ مَنْ هُوَ قَائِلٌ وَدُونَكَ هَذَا مَوْضِعُ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ  
ويرد فى شعره بعض المصطلحات النقدية مثل المثل السائر كما فى قوله: (١)

يا تاركى فى حبهٍ مثلاً من الأمثال سائر

ومن قضايا النقد التقديم للمدح بمقدمة غزلية وقد عرضت للكلام عنها فى هذا  
الموضع عند ابن سناء ، يقول البهاء زهير: (٢)

مَهَّدْتُ بِالْغَزَلِ الرَّيْقِ لِمَدْحِهِ وَأَرَدْتُ قَبْلَ الْفَرْضِ أَنْ أَتَنَفَّلَا

وهو يعد المدح فرضاً ويعد المقدمة الغزلية نفلاً .

ومن المصطلحات النقدية التى عرفت عن قصائد زهير وأتباعه مصطلح  
"الحوليات" وظهر هذا المصطلح عند البهاء وهو يقارن بين شعره وبين شعر زهير ابن أبى  
سلمى ، فهما زهيران ولكن لكل منهما طريقته وأسلوبه، وإذا كان ابن أبى سلمى اختار  
الصنعة منهجاً؛ فقد اختار البهاء الطبع، وإن صنع ابن أبى سلمى الحوليات؛ فقد ابتدع  
البهاء "الليليات" وجعلها فى مقابلة الحوليات حيث يقول: (٣)

دَعَا وَحَوْلِيَّاتِهِ ثُمَّ اسْتَمَعَ لَزُهَيْرِ عَصْرِكَ حُسْنَ لَيْلِيَّاتِهِ

ولعل فى هذا مؤشر يبين منهج البهاء فى صياغة القصيدة، فهو لا يتأخر فى  
صناعتها عن ليلة واحدة ويعرض البهاء لحادثة نقدية فى قوله: (٤)

لَوْ أُنشِدْتَ فِي آلِ جَفْنَةَ أَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ حَسَّانٍ وَعَنْ جَفْنَاتِهِ

وحسان رضى الله هو ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر "جفناته"  
يشير به الشاعر إلى تلك الحادثة النقدية التى حدثت لسيدنا حسان ابن ثابت فى الجاهلية  
عندما حكم النابغة على قوله :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٢٤ .

(٢) السابق، ص ٢٢٥ .

(٣) السابق، ص ٤٥ .

(٤) السابق، ص ٤٥ .

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

"فقال: إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك وفي رواية أخرى فقال له إنك قلت الجفان فقللت العدد ولو قلت: "الجفان" لكان أكثر وقلت: "يلمعن في الضحى" ولو قلت: "يبرقن بالدجى" لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً وقلت: "يقطرن من نجدة دما" فدللت على قلة القتل ولو قلت: "يجرين" لكان أكثر لانصباب الدم وفخرت بمن ولت ولم تفخر بمن ولدك فقام حسان منكسراً منقطعاً"<sup>(١)</sup>.

٦- البلاغة:

وهذا العلم من العلوم التي انفرد البهاء بالتأثر به عن ابن سناء الملك، فلم نجد له أثراً كبيراً على ابن سناء الملك، من حيث ظهور المصطلحات الخاصة به، ولكن الأمر عند البهاء كان غير ذلك فقد ظهرت مصطلحات علم البلاغة في صورته الفنية من مثل قوله: <sup>(٢)</sup>

وَأَعْجَبَنِي التَّجْنِيسُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا تَبَدَّى أَشْنَبًا رُحْتُ أَشْيَا

فالتجنيس مصطلح من مصطلحات علم البلاغة، ولكن الشاعر استخدمه هنا بوصفه طرفاً في صورة فنية، حيث جعل "الشنب" في حبيبتيه مجانساً لـ"الشيب" في شعره، وهي صورة شكلية صناعية ليس لها نصيب من طبع البهاء.

ومن ظهور مصطلحات البلاغة "البديع" في قول البهاء: <sup>(٣)</sup>

لَكَ فِي فَضْلِكَ الْمَحَلُّ الرَّفِيعُ لَا يُجَارِيكَ فِي الْبَدِيعِ الْبَدِيعُ

فالبديع فرع من فروع علم البلاغة، وهو هنا يستعمله ليجانس بينه وبين واحد ممن اشتهروا بالبديع في كتاباتهم وهو بديع الزمان الهمداني <sup>(٤)</sup>.

(١) ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٣٤٨/٩.

(٢) البهاء زهير، ديوانه، ص ٣٢.

(٣) السابق، ص ١٥٨.

(٤) "بديع الزمان الهمداني ٣٥٨ - ٣٩٨ هـ / ٩٦٩ - ١٠٠٨ أحمد بن الحسين بن يحيى الهمداني أبو الفضل. أحد أئمة الكتاب له مقامات، .. وكان شاعراً وطبقته في الشعر دون طبقته في النثر. ولد في همدان وانتقل إلى هراة سنة ٣٨٠ هـ فسكنها ثم ورد نيسابور سنة ٣٨٢ هـ ولم تكن قد داعت شهرته فلقى فيها أبا بكر الخوارزمي فتشجر بينهما ما دعاهما إلى المساجلة فطار ذكر الهمداني في الأفاق. ولما مات الخوارزمي خلا له الجو فلم يدع بلدة من بلدان خراسان وسجستان وغزنة إلا ودخلها ولا ملكاً أو أميراً إلا فاز بجوائزه. كان قوي الحافظة يضرب المثل بحفظه ويذكر أن أكثر مقاماته ارتجال وأنه كان ربما يكتب الكتاب مبتدئاً بأخر سطره ثم هلم جراً إلى السطر الأول فيخرجه ولا عيب فيه. وفاته في هراة مسموماً. وله (ديوان شعر صغير، ورسائل عدتها ٢٢٣ رسالة، ومقامات مطبوعة. مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمداني، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، وتقديم شريف عفت، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ومثله أيضا قوله: (١)

أَحِبُّ الْبَدِيعَ الْحُسْنَ مَعْنَى وَصُورَةً وَشِعْرِيَّ فِي ذَاكَ الْبَدِيعِ بَدِيعٌ

ولعل قوله هذا يدل على موقفه من البديع، وأنه يستحسنه بشرطه وهو أن يكون المعنى هو الذى استدعاه وتطلبه.

ومن المصطلحات البلاغية أيضا مصطلح الترصيع فى قوله: (٢)

أَيُّهَا الْمُتَّحِفِي بِنِظْمٍ وَنَثْرٍ كَلَّالٍ قَدْ زَانَهَا التَّرْصِيعُ

ومصطلح الترصيع، مصطلح بلاغى يقصد به أحد ألوان البديع المعروفة (٣).

ومن الألفاظ التى تستعمل بكثرة فى علم البلاغة والنقد، كلمات "التنميق" و"التأنق" و"الزخرفة" و"الحسن اللفظى" و"العدوبة" و"السبك" و"الدر" و"الانتقاء" و"الرونق" وتأمل تلك الصورة للقصيدة كما يتصورها البهاء زهير حيث يقول عن قصيدة المدح: (٤)

عَكَفْنَا عَلَيْهِ نَجْتِي مِنْ فَنُونِهِ      فَعَلَّمْنَا هَذَا الْكَلَامَ الْمَوْنَقَا  
وَكَمْ شَاعِرٍ وَافَى إِلَيْكَ بِمَدْحَةٍ      فَزَخَّرَهَا مِمَّا أَفَدْتَ وَنَمَّقَا  
فَإِنْ حَسُنْتَ لَفْظًا فَمِنْ رَوْضِكَ اجْتَنَى      وَإِنْ عَذَبْتَ شَرْبًا فَمِنْ بَحْرِكَ اسْتَقَى  
فَلَا زِلْتَ مَمْدُوحًا بِكُلِّ مَقَالَةٍ      تَرِيكَ جَرِيرًا عَبْدَهَا وَالْفَرَزْدَقَا  
وَمَا حَسُنْتَ عِنْدِي وَحَقِّكَ إِذْ غَدَتَ      هِيَ التَّيْرُ مَسْبُوكَا أَوْ الدُّرُّ مَنْتَقَى  
وَلَا إِنْ جَرْتَ مَجْرَى النَّسِيمِ لَطَافَةً      وَلَا إِنْ حَكَتْ زَهْرَ الرِّيَاضِ الْمُعْبَقَا  
وَلَكِنَّهَا حَازَتْ مِنْ إِسْمِكَ أَحْرَفًا      كَسَتَهَا جَمَالًا فِي النَّفُوسِ وَرَوْنَقَا

فهى قصيدة منتقاة، يحسن لفظها، ويعذب شربها، وهى كالتبر المسبوك، وألفاظها كالدرا المنتقى، واسلوبها سلس يجرى مجرى النسيم لطافة تفوح ريحها برائحة الرياض ..

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٥٨.

(٢) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٥٣.

(٣) "هذا النوع أعني الترصيع هو عبارة عن مقابلة كل لفظة من صدر البيت أو فقرة النثر بلفظة على وزنها ورويها وهو مأخوذ من مقابلة ترصيع العقد" ينظر: خزنة الأدب لابن حجة، ٤٠٩/٢.

(٤) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٧٩.

## ٧- الملل والنحل:

لعل من العلوم التى تأثر بها ابن سناء الملك علم الملل والنحل، وهو العلم الذى يعنى بتتبع الملل والنحل وبيان خصائصها وأوجه تطابقها مع الإسلام الحنيف أو اختلافها معه ويبحث فى فكر الفرق التى تظهر ومبادئها، وغير ذلك مما تختص به مثل هذه الدراسات ويبدو أن البهاء كان له اهتمام خاص بتتبع الفرق التى فى عصره ومعرفة أحوالهم ومن ذلك الصوفية ومذهب التصوف كما يظهر من قوله: (١)

عَلَىٰ لِدَاكَ الْيَوْمِ صَوْمٌ نَذَرْتُهُ وَعِنْدِي عَلَىٰ رَأْيِ التَّصَوُّفِ شُكْرَانٌ

ومن ذلك ورود كلمة التسنن وهى نقيض التشيع، والخلاف بين السنة والشيعية يكاد يتمثل فى خلاف الأيوبيين والفاطميين، يقو البهاء: (٢)

فَلَعَمْرِي يُرِيدُنِي فَرَطٌ هَذَا التَّسَنُّنِ

ومن ذلك عرضه لبعض عقائد الفرق الصوفية، وما يعتقدونه فى مشايخهم، المشى على الماء، مثل الفرقة الرفاعية التى تظهر خصائصها فى قوله: (٣)

فَلَوْ صَدَّقَ الْحُبُّ الَّذِي تَدْعُونَهُ وَأَخْلَصْتُمْ فِيهِ مَشَيْتُمْ عَلَى الْمَاءِ  
وَإِنْ تَكُنْ أَنْفَاسِي خَشَيْتُمْ لَهَيْبِهَا وَهَالَتْكُمْ نِيرَانٌ وَجَدٍ بِأَحْشَائِي  
فَكُونُوا رِفَاعِيِّينَ فِي الْحُبِّ مَرَّةً وَخَوْضُوا لَطَى نَارٍ لِشَوْقِي حَرَاءِ

وقد ألم أيضا بمعرفة المجوسية، وعرف عبادتهم وأظهرها فى صورة فنية حيث يقول: (٤)

إِذَا أَوْقَدْتَ لِلْحَرْبِ نَارًا أَوْ الْقَرَى تَوَهَّمْتَهُ مِنْ عَشِقِهَا مُتَمَجِّسًا

فالممدوح كريم، يحب الكرم ويحب مظاهره، ويجد لها طربا وأريحية، ولذا فهو يعشق النار التى هى إيقادها أحد أهم المظاهر التى تدل على الكرم، وهى صورة تراثية للكرم حيث

(١) السابق، ص ٢٦٥.

(٢) البهاء زهير، ديوانه، ص ٢٨٠.

(٣) السابق، ص ١٧.

(٤) السابق، ص ١٣٩.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

كانالعرب يوقدون النار ليهتدى إليهم عابر السبيل والضال، والجائع وغيرهم ممن تعوزهم الحاجة إلى طعام أو ماء أو أنس؛ ولذكر النار وحب الشاعر لها؛ فقد اقتربت الصورة فكادت تعبر ذلك الخيط الرفيع الذى يفصل بين حب الكريم للنار، وبين حب المجوسى لها ولذا كان الشاعر ذكيا حين استعمل اللفظ "توهمته" ولم يستعمل أداة من أدوات التشبيه فهو يريد أن ذلك الشبه إنما هو وهم.

وتقترب من هذه الصورة، بل تتكرر الصورة نفسها فى قوله بمدح قوم ممدوحه: (١)

جَبَلُوا عَلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنَّهُمْ فَتَتُوا بِنَارِ الْحَرْبِ أَوْ نَارِ الْقَرَى

وبهذا يتبين لنا أن العلوم التى أثرت فى ابن سناء هى ذاتها العلوم التى أثرت فى البهاء ولكن الواضح أن ثقافة ابن سناء العلمية كانت أوسع، وأن توظيفها فى شعره كان أظهر وأوضح وواضح أيضا أن ابن سناء كان يتكلف ويتحيل أكثر من البهاء ليستعرض ثقافته ويدل بها، تمشيا مع ما اختاره لنفسه من الأسلوب وهو التصنيع كما سيأتى بعد بمشيئة الله.

**المبحث الثانى، مهنة الكتابة وأثرها فى الصورة بين الشاعرين:**

**توطئة: بين الشعر والكتابة:**

كان الشعر فى عصوره الأولى فن العرب وعلمهم الأول، وكان أيضا وسيلتهم فى تقييد الأفكار، والتواريخ، والمشاعر، وكذلك كان هو المظهر لحضارتهم الكلامية، يستوعب عاداتهم وتقاليدهم حتى فى المأكل، والملبس، بل فى أدق شئون الحياة؛ مما يمثل ثقافة أمة حية.

وكان -إضافة إلى ذلك- وسيلتهم فى التصوير لما يرون؛ إذ هم أمة أمية لا تعرف القلم فضلا عن ريشة الرسام التى يستخدمها فى التصوير؛ فريشة الرسام تحتاج إلى استقرار وإقامة وحياة العرب لا تعرف عن الحياة إلا أنها رحلة، أو نية فى الرحيل.

بل كان الشعر هو أداة الإعلام والإذاعة للمكارم، يصور أصحابها، ويذيع فضائلهم فمن نوه به الشعراء طار اسمه فى الآفاق، وقصة الملق مع النابغة مشهورة، وغيرها كثير

(١) السابق، ص ٩٨.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ممن لعب الشعر فى حياتهم دورا يشبه دور الإعلام، والدعاية الإعلامية كمثل ما لعب فى حياة بني أنف الناقة، أو "نمير" قبيلة الراعى النميرى. فهو يقوم فى حياتهم مقام الصورة المتحركة التى يمثلها التلفاز فى عصورنا الحديثة .

لقد كان العرب ينقلون ثقافتهم ولوحاتهم وعلومهم وفكرهم فى صدورهم عبر أبيات الشعر فيحلون ويرتلون وكل ذلك معهم لا يكلفهم مئونة فى الحمل ولا مشقة فى الرحيل . أما وقد توالى الفتوحات ، وعرف العرب الاستقرار ، وأصبحت هذه اللغة عالمية دانية إلى كل متعلم ممن يرغب فى معرفة ثقافة العرب والدين الإسلامى الجديد فقد احتاج الأمر إلى تعلم الكتابة وإشاعتها بين الناس لأن السلائق فسدت، وأصبح الحفظ والرواية تدخلهما ريبة فى أصحابهما لا سيما وقد ارتبط الأمر بالقرآن الكريم والحديث الشريف؛ فأصبحت الأمة الإسلامية تحتاج إلى وسيلة أكثر حرصا على المحفوظات الكريمة بما فيها شعر العرب وكلامهم، وأمثالهم، فكانت الكتابة، وكان الكتاب، وأصبحت أمة الإسلام-على مر الليالى وكرا الأيام- كاتبة قارئة، وبمر العصور أيضاً أصبحت الكتابة هى الوسيلة الأولى فى تقييد الفكر والتاريخ والمشاعر، فقيل: إن "الخط أفضل من اللفظ لأن اللفظ يفهم الحاضر فقط والخط يفهم الحاضر والغائب" (١)

فبالكتابة "ظهرت خاصة النوع الإنسانى من القوة إلى الفعل، وامتاز عن سائر أنواع الحيوان، وضبطت الأموال، وترتبت الأحوال، وحفظت العلوم فى الأدوار، واستمرت على الأطوار، وانتقلت الأخبار من زمان إلى زمان نقلت من مكان إلى مكان" (٢) .

أما عن زمن شاعرينا وهو القرن السابع الهجرى فهو عصر الأيوبيين ودولتهم السنية، التى تحترم العقل، وتقدر العلم، وتعرف حق العالم والكاتب، اختارت هذه الدولة

(١) أحمد بن على القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، بتحقيق د. يوسف على الطويل، دار فكر دمشق، ط أولى، ١٩٨٧، ج٣، ص٦ .  
(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص٦ .

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

صلاح الدين قائدا لها، فاختار صلاح الدين القاضي الفاضل وزيرا ومستشاراً وكاتباً، حتى أنه كان يقول: "ما نصرت بسيوفكم ولكني نصرت بقلم القاضي الفاضل"<sup>(١)</sup>.  
وأراد الله أن يتخذ القاضي الفاضل شاعرنا ابن سناء الملك نائباً عنه ومساعداً له، فالدولة تقوم على أركان ثلاثة الدين والسياسة والعلم. والكتابة عمل سياسي، لكن شرطه العلم ولذا فابن سناء الملك والقاضي الفاضل كانا رجلي سياسة، فضلاً عن كونهما عالمين، وكان القاضي الفاضل أبرز رجل سياسي في الدولة بعد أمراء بني أيوب، وهو صاحب مذهب في الكتابة والشعر، بل هو إمام الكتاب والشعراء، يحب كل منهم أن يقلده رغبة في الوصول إلى ما وصل إليه.

فكتاب العصر وسياسيّه إذن هم أنفسهم شعراء هذا العصر، ولذا استلزم هذا الأمر أن يستجد على أساليب الشعر جديد، ويطرأ عليها طارئ، هو التأثر البيّن بقوانين الكتابة وعادات الكتاب، فلقد تفوقت الكتابة على الشعر تفوقاً كبيراً، مما أكسب الكتاب عادات خلقية وتقاليد اجتماعية تحفظ لهم هيبتهم أمام الناس بوصفهم رجال سياسة، كما أكسبهم عادات مهنية حرفية ترجع إلى صنعتهم؛ كالتزام الحذر والدقة فيما يكتبون؛ إذ عرفوا الطريق إلى التسويد والتبييض، والمحو والتغيير؛ لذا "كان الكتاب حينئذ يتبارون على اقتناء الفضيلة، ويترفعون عن أن يعلق بهم من الجهل أدنى رذيلة، ويجهدون في معرفة ما يحسن ألفاظهم، ويزين مكاتباتهم لينالوا بذلك أرفع رتبة ويفوزوا بأعظم منزلة"<sup>(٢)</sup>.

وشرائط كثيرة ذكرت في الكتب التي تناولت الكاتب وما ينبغي له من الصفات والثقافات والعلوم التي يلم بها، مثل أدب الكاتب وصبح الأعشى، والمثل السائر، فالكتابة أصبحت هي المعول عليها في تقييد الصورة الذهنية؛ فالألفاظ التي يتخيلها الكاتب في أوهامه، ويصور من ضم بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه تصيح - بالخط

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - الهند ١٩٥١ ج ٨، ص ٣٠٤  
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٨٠.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

الذى يخطه القلم ويُقيدُ به تلك الصورة، بعد أن كانت صورة معقولة باطنة- صورة محسوسة ظاهرة"<sup>(١)</sup>

أصبح الشعر فى هذا العصر فنا مكتوبا؛ لذا فقد تأثر بالكتابة؛ إذ الفنون الكتابية كالبشر، يقلد المغلوب منها الغالب، ويتأثر به، ويحاول أن يقلده، ويتطبع بطباعه، ويتزيا بثيابه، ولما وجد الشعر أن للكتابة قصب السبق فى هذا العصر؛ كان لا بد أن تنتقل خصائص الكتابة إلى الشعر، لتأخر دور العاطفة التي لم تمح تماما، وليتقدم دور العقل الذي لم يصبح وحيدا فى السيطرة على صنعة الشعر، ولذا؛ أصبحت الصورة الفنية فى القصيدة الشعرية صورة مصنوعة، يرسمها لسان القلم الجاف، لا يتحرك بها لسان إنسانى رطب.

ولن أكون مبالغا إذا قلت: إن فنون العمارة التى تطورت تطورا مذهلا منذ عهد الفاطميين، كان لها أثره فى الأخرى فى الصورة الفنية فى الشعر؛ لأن الحياة الإنسانية كل متصل، لا تنفصل فيه بنية عن بنية، والفنون تتعاور ويتأثر ببعضها، "فالعمارة تعد أعم المجالات الفنية التى برع فيها المسلمون خلال العصور الإسلامية"<sup>(٢)</sup> والمؤثرات الفكرية التى يتأثر بها الفنان التشكيلي هى عينها التى يتأثر بها الفن الشعرى، وكل يعرض تأثره حسبما تمليه عليه طبيعة فنه؛ فقد أصبح الشاعر ينحت صورته نحتا كما ينحت الرسام والنقاش صورة أو آية قرآنية على محراب مسجد، أو يرسم رسما زخرفيا على جدار مبنى.

تداخلت فى الصورة - إذن - ألوان وخطوط وظلال؛ ألوانٌ مما يراه الشاعر فى حياته اليومية، وخطوطٌ من دراسته للقصيدة العربية ومعرفته بصنعتها، وظلالٌ من الماضى والحاضر تظل صورته وفنه، وأصبحت الصورة الفنية فى الشعر متعددة الأبعاد، معقدة النسيج، تلتقى فيها العلوم مع العواطف، مع الثقافة الشعبية السائدة، مع الموروث من صور

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٨٢.

(٢) د. محمد على عبد الحفيظ، دراسات فى العمارة الإسلامية، ط ٢، ٢٠٠٣، وفى الكتاب عرض مصحوب الصور لما كانت عليه العمارة فى أيام الأيوبيين من القلاع والأسوار والقصور مما أوحى للباحث بأن القصيدة كانت أحد الأبنية التى اهتم بها شعر أوهم بوصفها بناء يتسم بالقوة والتخطيط.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

السابقين؛ فهل ندرك الفرق بين أن تكون الصورة الشعرية مقولة وبين أن تكون مكتوبة وهل ندرك الفرق بين أن يكون الشعر فنا قوليا، أدواته اللسان، وبين أن يكون فنا كتابيا أدواته القلم؟.

كان المصطلح الشائع - فى وصف الإبداع الشعري- هو مصطلح قول الشعر أو قرضه أو ارتجاله والنطق به واللهج والهذيان، وكلها أوصاف راجعة إلى اللسان ودرجة إجادته للتحرك بالشعر، أما فى هذا العصر فقد تحول المصطلح إلى "كتابة الشعر" وكأن فن الشعر أصبح خليطاً من نوعين أدبيين هما الكتابة والشعر، الكتابة بما هو معروف عنها من قواعد وأسسها وطرائقها، والشعر بما هو معروف عنه من أوزان وموسيقا وقواف وأسلوب خيالي، ولقد تقارب الفنان فى شعر العصر الأيوبي؛ نتيجة لأن الكتابة كانت الفن الأول وكان الشعر داخلاً فى صنعة الكتابة، كما أشار إلى ذلك المنظرون لفن الكتابة كابن قتيبة وابن الأثير والقلقشندي.

فالأمر أصبح مسلماً به وفضلت الكتابة الشعر عند بعض كتاب هذا العصر ومما يدل على هذا ما ساقه بعض المؤلفين من تفضيل لها عليه مثل ما حكاه ابن قتيبة فى أدب الكاتب والقلقشندي الذى عقد الفصل الثالث من كتابه صبح الأعشى لترجيح النثر على الشعر ورأى "أن النثر أرفع منه درجة وأعلى رتبة وأشرف مقاما وأحسن نظاما"<sup>(١)</sup>.

يقول: "وناهيك بالنثر فضيلة؛ أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز، ونوره المبين الذى لا يأتية الباطل، من بين يديه، ولا من خلفه، ولم ينزله على صفة نظم الشعر؛ بل نزاهه عنه بقوله: "وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون" ويرى القلقشندي أن السبب فى هذا التفضيل هو: "أن مقاصد الشعر لا تخلو من الكذب، والتحويل على الأمور المستحيلة والصفات المجاوزة للحد، والنوعت الخارجة عن العادة، وقذف المحصنات، وشهادة الزور

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٨٩.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبيهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وقول البهتان، وسب الأعراس، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لأحاد الناس؛ فكيف بالني ولا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفحله" (١).

ولخطر الكتابة الذي تكلمت عنه آنفا؛ فإن مصالح الأمة متعلقة بأقلام الكتاب وبهذه الميزة -أيضا- فضل الترسل الشعر عند القلقشندی؛ لذا نراه يقول: "والترسل مبنى على مصالح الأمة، وقوام الرعية؛ لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك، وسراة الناس في مهمات الدين، وصالح الحال، وبيعات الخلفاء، وعهودهم، وما يصدر عنهم من عهود الملوك وما يلتحق بذلك من ولايات أرباب السيوف والأقلام، الذين هم أركان الدولة وقواعدها إلى غير ذلك من المصالح التي لا تكاد تدخل تحت الإحصاء، ولا يأخذها الحصر"، وإن مما يرويه القلقشندی (إثباتا لمذهبه) في تفضيل النثر على الشعر "أن النابغة الجعدي كان سيدا في قومها لا يقطعون أمرا دونه وأن قول الشعر ناقصه وحط رتبته" (٢).

بل إن القلقشندی يذهب إلى أبعد من هذا حين يبطل حجة من زعم أن الشعر أرقى من النثر ويصف هذا الرأي بأنه اتباع للهوى يقول: "ولا عبرة بما ذهب إليه بعضهم من تفضيل الشعر على النثر اتباعا لهواه بدون دليل واضح، (قال في الصناعتين): ومع ذلك فإن أكمل صفات الخطيب والكااتب، أن يكونا شاعرين، كما أن من أتم صفات الشاعر أن يكون خطيبا كاتبا، قال: والذي قصر بالشعر أكثرته، وتعاطي كل أحد له حتى العامة والسفلة فلحقه بالنقص ما لحق الشطرنج حين تعاطاه كل أحد" (٣).

وصفات الكاتب التي لا بد أن يتحلى بها منها ما هو خاص بشخصية الكاتب ومنها ما هو خاص بفن الكتابة والألات المستخدمة فيه من ثقافة واقتدار على ناصية اللغة والتمكن من نحوها وصرفها وبلاغتها والتميز في أساليب التعبير التي تسهم في القدرة على

(١) السابق، ج١، ص٩٠، ٩١.

(٢) السابق، ج١/٩١.

(٣) القلقشندی، صبح الأعشى، ج٩٢/١، وتتنظر عبارة أبي هلال في الصناعتين، بتحقيق على محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط٢، ص١٤٥.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

الإقناع بالمتكوب وهذا ما حاول أن يثبتته ابن قتيبة فى أذهان ووجدانات تلاميذه من الكتاب على مر العصور؛ فأعد لهم كتابه "أدب الكاتب" الذى حوى الكثير من الآداب التى ينبغى للكاتب أن يتحلى بها .

فمن الصفات الخاصة بشخصية الكاتب أنه لا بد له من همة النفس والأنفة وكد النظر وتعب الفكر يقول ابن قتيبة: " فإنى رأيت كثيرا من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطئوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكير حين نالوا الدرك بغير سبب وبلغوا البغية بغير آلة ولعمري إن كان ذلك؛ فأين همة النفس وأين الأنفة من مجانسة البهائم" (١)

ولا بد له مع ذلك من معرفة شيء من النحو والإعراب فلا بد أن يعرف "الصدر والمصدر والحال والظرف وشيئا من التصارييف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك" (٢) كما أن الثقافة بالعلوم الرياضية أمر هام بالنسبة للكاتب ف" لا بد له مع كتبنا هذه من النظر فى الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية والمثلث الحاد والمثلث المنفرج ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات .... ومن لم يكن عالما بإجراء المياه وحفر فرض المشارب وردم الهاوي ومجاري الأيام فى الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر فى استهلاله وأفعاله ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع المختلف الزوايا ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه ودقائق الحساب كان ناقصا فى حال كتابته" (٣) ... ولا بد له مع ذلك من النظر فى جمل الفقه ومعرفة أصوله من حديث رسول الله وصحابته" (٤) ولا بد له مع ذلك من دراسة أخبار الناس، وتحفظ عيون الحديث؛ ليدخلها فى تضاعيف سطورها؛ متمثلا إذا كتب، ويصل بها

(١) ابن قتيبة، أدب الكاتب، بتحقيق محيي الدين محمد عبد الحميد، المكتبة التجارية، ١٩٦٣ ط ٤ ج ١، ص ٦.

(٢) السابق، ج ١، ص ١٠.

(٣) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ج ١، ص ١١.

(٤) السابق، ج ١، ص ١١.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

كلامه إذا حاور، ومدار الأمر على القطب، وهو العقل وجودة القريحة ... ونحن نستحب لمن قبل عنا، وائتم بكتبتنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ويجانب - قبل مجانيته اللحن وخطل القول - شنيع الكلام ورفث المرح". (١)

ونستحب له أن يدع فى كلامه التّعير والتّعيب...، نستحب له أيضا أن ينزل ألفاظه فى كتبه فيجعلها على قدر الكتاب والمكتوب إليه وأن لا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضع الكلام. (٢)

**المطلب الأول، مظاهر الكتابة فى صور ابن سناء الملك:**

رأيت كيف كان البناء العقلي والعلمي الذي ينبغي أن يكون الكاتب عليه، ومن ثم فلا مناص من أن تتأثر الصورة وهى -هدف الشعر- بالكتابة لما قدمنا؛ إذا كان الشاعر كاتباً؛ ولذا كان من أهم سمات الصورة فى هذا العصر: الانتقاء والترتيب والتنميق وموافقة العقل وعدم سيطرة العاطفة عليه، وأدى هذا كله إلى أن ظهرت فى العصر الأيوبي مدرسة شعرية، تسمى مدرسة الكتاب، تميزت هذه المدرسة بمعالم وملامح أدبية، ظهرت بوضوح فى ممثلى هذه المدرسة، ومنهم شاعرنا، وقد لخص الباحث محمد إبراهيم نصر معالم مدرسة الكتاب هذه قوله:

"لقد كان شعراء هذه المدرسة يخضعون للاتجاهات الفنية التى يخضع لها الكتاب وكان فنهم يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شيء، واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع الضخم والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع مع حلاوة الإيقاع، وكانوا يتلاعبون بهذه الألفاظ تلاعباً يظهر فيه أثر الصناعة والتكلف، وكانوا يحلون فنهم بالزينة البديعية من جناس وطباق وتورية، ومراعاة نظير إلى غير ذلك من ألوان البديع والبيان ومن أنصار

(١) السابق، ج ١، ص ١٣.

(٢) السابق، ج ١، ص ١٧.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

هذه المدرسة القاضى الموفق وابن الخلال والأسعد بن ممانى ... على أنهم التقوا مع مدرسة الرقة والسهولة ومعهم ابن سناء الملك. والواقع أن ابن سناء الملك كان تلميذا للقاضى الفاضل كما أسلفنا يسترشد بأرائه ويعنى بنقده وكان يعنيه أن يستجيد شعره .. والقاضى الفاضل كما نعلم هو زعيم مدرسة الكتاب فى العصر الأيوبي إن لم يكن مؤسسها ولذا نرى أن ابن سناء الملك قد تأثر به تأثرا كبيرا وإن كانت له شخصيته والشعراء الآخرون الذين تأثر بهم وعدهم أساتذة له كابن المعتز وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك بقى أن نشير إلى أن ابن سناء الملك كان يحاول التجديد والابتكار وإن دفعه ذلك إلى نزعة عقلية ابتعدت به أحيانا عن رياض الشعر المونقة فابن سناء إذن ينزع منزع مدرسة الكتاب وإن تعلق بآثار الأقدمين فاقندى بهم فى كثير من صورهم وتفكيرهم" (١)

وللكتابة فى شعر ابن سناء الملك مظهران: أما أحدهما فخفى لا سبيل إلى إدراكه إدراكا علميا يقوم على التحديد وهو أخلاقيات الكتاب التى كان ابن سناء الملك يأخذ نفسه بها أو إن صح التعبير أخلاق النبلاء من الأثرياء الذين لهم فى الدولة خطر وشأن. وأما الآخر فهو المظهر المحسوس الذى يمكن تحديده وإقامة الدليل عليه ثم إقامته دليلا على تأثير صنعة الكتابة على الصورة الفنية فى الشعر عند ابن سناء الملك وهذا ما يمكن أن نصل إليه من خلال بعض الظواهر التالية:

#### ١ - ظهور الرموز الكتابية:

الكاتب صانع والكتابة صنعة، أدواتها: القلم والطرس والحرير، وتتاجها كلمات مكتوبة مصطفة على أسطر، كل كلمة هي فى ذاتها كيان مركب من أصوات، يرمز لها بحروف هي رسوم متجاوزة، نصب - فى الخط - شكلها المجرد بغض النظر عن دلالتها ومعانيها، بيد أنها قد تدل بأشكالها ورموزها على معانيها.

(١) محمد إبراهيم نصر، ابن سناء الملك حياته وشعره، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧، ص ١٦٨.

الصورة الفنية فى قصيدة المدهح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

" فالمعاني لها فى الوجود أربعة مواضع الأول وجودها فى أنفسها والثانى وجودها فى أفهام المتصورين لها، والثالث وجودها فى الألفاظ التى تدل عليها والرابع وجودها فى الخط الذى هو أشكال تلك الألفاظ المعبر عنها" (١)

وإذا تأملنا الرابع من هذه الأقسام عرفنا أن الحرف العربى بشكله وهينته أصبح يكتنز نوعاً من المعنى وأنه قد عرف الطريق إلى التجريد، إذ أصبح ذا جمال فى ذاته، مستقلاً عن كونه معبراً عن معنى بانضمامه إلى غيره فى كلمة واحدة أو كلام كثير؛ مما أدى إلى ظهور علم متكامل له قواعده وأساسه وأصوله، ومنهجه، هو علم الخط العربى.

وعلم الخط العربى هذا، يعد واحداً من أهم العلوم التى يجب أن يتقنها الكاتب، إذ يتعرف فيه على كل ما من شأنه أن ينتج له خطأً جميلاً من كيفية سن الأقلام، ومعرفة المدبب من المستطيل من المبرود منها وكيفية التعامل مع هذه الأقلام: كيف يمسكها وكيف يجعل الخط مرة رفيفاً وأخرى سميكاً، وتارة صغيراً، وتارة أخرى كبيراً.

ولقد سبق أن عرفنا أن ابن سناء الملك كان يعمل كاتباً، عاش جلّ عمره بين الأقلام والدفاتر، والحروف، يؤلفها، ويكتبها ويتأملها ويحملها من مشاعره ما أمكنه أن يحملها ولم يكن عهده بالحروف جديداً فلقد كان أبوه مثله، وكان هو يرى فى الكتابة سر حياته، وسعادته، حيث ارتبطت سعادته بالقاضى الفاضل زعيم الكتاب فى عصره؛ فهو الذى رفعه وقربه وأدناه من السلطة، فلا غرو أن يحب الكتابة والكتاب .

ولعلى لا أكون مبالغاً إذا قلت: إن الرجل كان يتعامل مع رموز الحروف حتى استحالت هذه الرموز أشخاصاً قابلة لأن تأتي أطرافاً فى صورته الفنية.

فحرف النون الذى هو نصف دائرة مقوس طرفاه إلى أعلى وفى داخله نقطة، يشبه خصلة الشعر النازلة على صدغ المرأة ذات الوجه الأبيض، إذ على خدها خالٌ تحتضنه تلك الخصلة، كاحتضان النون لنقطتها يقول ابن سناء: (٢)

عضة لي من تحت نون بصدغ منك أضحت كأنها تتوين

(١) مجدى أحمد توفيق، مفهوم الإبداع الفنى فى النقد العربى القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٣١١  
نقلاً عن سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٣٣٣.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

أرأيت كيف تحولت الصورة من وجه الحسناء وخصلة الشعر ونقطة الخال إلى حرف النون، على ورقة بيضاء، بل إن الكتابة لتمتلك على الرجل أقطار نفسه وتأخذ بتلابيب خياله، فيرى حتى القبلة التي بالغ وسمّاها عضة تنويناً.. حيث تركت تلك العضة أثراً على خدها تحت الخصلة المشار إليها، فإذا بها تشبه التنوين، فكأن الخصلة من الشعر على خدها وهي تحتضن الخال، ومن تحتها تلك العضة، كأنها نون مكسورة أسفلها تنوين. وحرف النون من الحروف التي لها وقع خاص على قلب ابن سناء فتلك الصورة المشار إليها سابقاً تتكرر لكن مع إضافة ملمح كتابي جديد هو "المشق" يقول: (١)-

وما اكتفت بكتب نـ (م) سون الصدغ حتى مشقت  
"والمشق في الكتابة مدحروفها، أي أنها حسنت نون الصدغ ومدت فيها" (٢) ولتلك  
الخاصية لحرف النون ولشده السابق، عشق النونات؛ بل قبّلها في كل كلمة تصادفه فيها تلك  
"النون" حتى لقد قبل نون "المنون" مبالغة في عشقه للنون، لما أشبهه من حبيبته: (٣)  
أقبل النونات من أجله حتى لقد قبّلت نون المنون  
(٤) ويقول في صورة أخرى:

فرقت باللثم نون الصدغ أو رجعت نونين منه وكان الصدغ كالنون

وتتأيد مكانة النون في قلبه، من كونها اسماً لسورة قرآنية عظيمة؛ فهو عندما يبكي على واحدٍ ممن رثاهم من العلماء، فإن أولى سور القرآن مشاركة له في البكاء عليه هي سورة "نون" ثم سورة "صا"؛ أرأيت إلى الحروف كيف تبلغ لديه مبلغ الأشخاص حتى يسند إليها البكاء؟ أرأيت كيف يجعلها أول مشارك له في البكاء على المرثي؟ (٥)  
وقد بكت سور القرآن فاستمعوا شهيق نونٍ بسمع القلب أو صا

(١) السابق، ص ٣٦٨.

(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٣٦٩ هامش ٢٢.

(٣) السابق، ص ٤٥٣.

(٤) السابق، ص ٤٥٥.

(٥) السابق، ص ٥٠٥.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

لقد أصبحت الحروف وأشكالها تمثل الطبيعة التي يحيا فيها ابن سناء الملك، فلا غرابة أن استدعاها لمشاركته الحزن، على عادة الشعراء فى استدعاء مفردات الطبيعة من حولهم وإشراكهم إياها فى أحوالهم الوجدانية، كما فعلت الشاعرة الجاهلية<sup>(١)</sup>؛ إذ أشركت شجر الخابور معها فى الحزن، وعاتبته عتاب الصديق "على أنه زها وأورق، فى حين أنه كان ينبغى أن يلبس الحداد على ابن طريف"<sup>(٢)</sup>.

وكما فعل طرفة بن العبد إذ أمضى همه بناقته إذ يقول<sup>(٣)</sup> :  
وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتغتدى  
وكما فعل امرؤ القيس إذ سلى عن نفسه الهم بناقته<sup>(٤)</sup> :

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ذمول إذا صام النهار وهجرا

غير أن شاعرنا مدنى متحضر، لم تعد الناقة والفرس والشجرة هى كل بيئته؛ بل أضيفت الأقلام والطروس والحروف إلى مفردات الطبيعة، وصارت أكثر التصاقا به وبصنعة الشعر لديه، فحرف النون دائما ملاصق للصدغ حتى لقد أصبح ردفه، وصنوه الذى يذكر كلما ذكر ويشبهه به كلما طلب الشاعر للصدغ شبيها:<sup>(٥)</sup>

ونون صدغ زادنى جنة وربما يعذر فيه الجنون

إن الحروف وأشكالها تمثل وسواسا لا ينى يهتف فى أذنه ساعة كتابة الشعر، بل رثيا يتراءى له كلما أراد شبيها أو طلب تصويرا، وإلا فانظر إلى وجه حبيبته كيف يتحول إلى مجموعة من رموز الكتابة:<sup>(٦)</sup>

(١) الشاعرة هى: ليلى بنت طريف، وقيل الفارعة بنت طريف، وعُنيت قصيدتها التى جاء فيها قولها:

أيا شجر الخابور مالك مورقا... كأنك لم تجزع على ابن طريف

وقد روى ابن خلكان القصيدة كاملة فى ترجمته للمرثى بالقصيدة وهو الوليد بن طريف، شرح ديوان الحماسة، للمرزوقى، ج ٣/ ١٠٩٢، هامش ٢.

(٢) د. عبد الحلیم حفنى، المراثى الشعبية (العديد)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، ص ٢٦٤.

(٣) الزوزنى، شرح المعلمات السبع، دار مصر للطباعة ص ٣٨، ود. حسن عبد السلام، الموت فى الشعر الجاهلى.

(٤) امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف بالقاهرة، ١٩٨٢م، ص ٢٣٣.

(٥) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٤٢٣.

(٦) السابق، ص ٢٧٨.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

فباء عذار فوقه سين طرة إلى ميم ثغر فهو أوله بسم

ثم قل لى بربك، ألا تشكل الكتابة، وعالمها وجدان هذا الشاعر، وترتسم بجزئياتها على صورته الفنية؟ ثم إننا لو تعاملنا بنظرة موضوعية مع هذه الصور، لأدركنا وجه الجمال فيها، وحكايتها لحال صاحبها وبيئته التى نشأ فيها ومرد عليها، إذًا لشاركنا الشاعر ما يحس به وفهمنا عنه ما يريد أن يوحى به إلينا، بدلا من أن نحكم عليه بالبرود والجفاف.

الوجه أول ما يرى من الإنسان، وهو العنوان على صاحبه وهو أكرم عضو فى الجسد حتى أن كبراء القوم يسمون وجوها ووجهاء، والذى يقابل ذلك فى الصحائف المكتوبة هو البسمة، والبسمة جمالها المعنوى وأثرها فى القلوب أت من قول الحبيب صلى الله عليه وسلم: "كل عمل ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر" فوجه الحبيبة وما يحدثه من الأثر فى القلب شبيهه بالبسمة وما يحدثه البدء بها من راحة للعين والقلب، فانظر واشعر كيف ارتبط وجه حبيبته بشبيهه "كتابي" له قدسيته وحرمة وتأمل العفة فى التشبيه، وتأمل كذلك رغبة الشاعر فى دوام الصلة وعدم انقطاعها إذ وجهها "بسمة" باقى جسمها؛ بل "بسمة" علاقته بها. ثم اسأل نفسك ألا ينم هذا عن بيئة الشاعر التى يعيشها ويتأثر بها؟ أقصد بيئة الكتابة.

نعم "فكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون؛ مال به إلى ذلك الفن، وغلبت عليه قواعده، واستعملها فى مقاصده الشعرية وتخيلات معانيه، وظهر على ما يرومه اصطلاح ذلك الفن، وأحكامه" (١).

وعندما يريد الشاعر، الكاتب أن يصور أثر الحب على نفسه فإنه يشبه حاله بحال من مسه طائف من جنون يقول: (٢)

ومسنى مس بمن ثغره فى فمه الألس ميم وسين

(١) صلاح الدين الصفدى، الغيث المسجم فى شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ج ١ ص ٢٠٤.  
(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٣٢٥.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

فهو تحت تأثير خدر الكتابة، يلتبس لهذا المس أسبابا تتعلق بكلمة "مس" وتكوينها الشكلى، إذ هى "م" و"س" أما الميم فقد ساعدت فى جلب المس لأنها تشبهه مرشفاً حبيبه فى استدارته، ودقة تكوينه، وأما السين فقد أتت المس لأنها تشبهه أسنانها فى استوائها ودقتها. فأنت تراه وقد حول الصورة، واتجه بها من طرفها "البشري"، إلى طرف آخر "كتابي" بل جعلها "صورة كتابية"، وما كان ذلك ليكون لولا تأمله الدائم لأشكال الحروف، وإحساسه تجاهها بأحاسيس تختلف عن أحاسيس غيره بها، ولقد أرغم، أن الشاعر كان ذا خط جميل يكتب الحروف أولاً، ثم يحاول أن يجد لها شبيهاً فى الطبيعة من أعضاء الإنسان، ثم تواتيه الفكرة معكوسة حين يريد لأعضاء الإنسان شبيهاً ساعة كتابة الشعر فيذكر ما كان شبيهاً به من قبل من الحروف "فتسمية أعضاء الإنسان بالحروف شيء أكثر الشعراء منه فشبهاواً الحاجب بالنون، والعين بالعين، والصدغ بالواو، والفم بالميم والصاد، والثنايا بالسين، والقامة بالألف، والطرة بالشين"<sup>(١)</sup>.

وأظن أن الصفدى فى هذا النص السابق يقصد الشعراء الذين اتخذوا الكتابة صنعة وحرفة مثل شاعرنا، وغيره كالقاضى الفاضل والعماد الأصبهانى، وغيرهم من الشعراء الكتاب، أو الكتاب الشعراء إن شئت الدقة فى التعبير.

والعلة فى ذلك ظاهرة فصنعة الكتابة كان أحد شرائطها حسن الخط، والسريعة فى كتابته، وما أظن حسن الخط يتأتى للموهوب إلا إذا صقله تأمل ومداومة على التنميق فيه والتحسين والتزيين، كما أشار إلى ذلك القلقشندى إذ اشترط فى الكاتب أن "يكون حسن الخط أو بالغاً فيه القدر الكافي"<sup>(٢)</sup>. وكذلك "أن يكون سريع اليد فى الكتابة حسن الخط"<sup>(٣)</sup> وأشار إلى أن بلوغ الشأ فى الكتابة لا يدركه "إلا العالم الحاذق بهندسة الخط

(١) صلاح الدين الصفدى، الغيث المسجم، ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ١ ص ١٦٧.

(٣) السابق.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

مع ما يكون من الأناة وحسن التأدية" (١)؛ إذ كان لهم فى الإمساك بالقلم صنعة لفت إليها من اشتهروا بالخط الحسن كالوزير ابن مقلة الذى روى عنه القلقشندى قوله " ويكون الإمساك بالقلم فويق الفتحة بمقدار عرض شعيرتين أو ثلاث وتكون أطراف الأصابع متساوية حول القلم لا تفضل إحداهن على الأخرى" (٢).

وربما يزول العجب إذا عرفنا أن القلقشندى قد لفت إلى جمال الخط وذكره فى كتابه صبح الأعشى فى ما يربو على مائتي موضع وأشار إلى مؤلفات ألفت فى الخط قال: "وصاحبنا الشيخ شعبان بن محمد بن داود الأتارى محتسب مصر، ونظم فى صنعة الخط ألفية وسماها (العناية الربانية فى الطريقة الشعبانية) لم يسبق إلى مثلها" (٣).

وإذا أدركنا ذلك سهل علينا تصور أن بعض الرموز الكتابية كرمز الـ"م" يصير له بسبب معاشة الشاعر له، ميزة أو مقدار أو درجة فى الحب يفضل بها غيره فهو شبيه بالفم دائماً والفم أو الثغر عضو فى المرأة له خصوصية فى علاقة الشاعر بلوحة وجه حبيبته وصورتها ولذا فقد ورد رمز الميم عنده بكثرة فى غزله خاصة، من مثل قوله: (٤)

فم كميم وفيه سين مبتسم  
واقولة: (٥)

وشعره لتغره ميم بدت  
واقولة: (٦)

قل لحبيبي إننى  
صاد إلى ميم فمه  
واقولة: (٧)

(١) السابق، ج ٣، ص ٤٣.

(٢) السابق.

(٣) السابق، ج ٣، ص ٢٠.

(٤) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٤٥٥.

(٥) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٤٦٥.

(٦) السابق، ص ٤٤٧.

(٧) السابق، ص ٤٤٥.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ما فمه ميم ولكنه علامة الجزم على الميم

وهو هنا يبالغ فى دقة هذا الفم واستدارته، حتى أن استدارة الميم تبدو أكبر منه فيحاول-مبالغة فى التصوير- أن يجد شبهها أصغر من الميم ، فلا يجد إلا علامة الجزم، وهى رأس الميم الصغيرة التى ترسم على الحرف المجزوم.

وكما ظهرت الميم فى الغزل ظهرت فى الرثاء عنده ، فى قوله (١)

وفؤاد ما بين هاء وميم لم يكف عنه بميم وهاء

فالفهم الذى يتردد فيه قلبه ليس يزجر بكلمة الزجر " مه " وما لهم إلا جماع الهاء والميم ، وما الزجر إلا جماع الميم والهاء ، وذلك قد يبدو متكلفا شديد التكلف بالنسبة لرجل يعيش بعيدا عن جو الكتابة ، وما تمليه من التنميق ، والتحسين والاختبار والانتقاء، وإدراك علاقات حميمة بين الحروف وأشكالها وبين ما تدل عليه من المعانى.

أما بالنسبة لشاعرنا فالأمر مختلف ، بل قد يبدو الأمر غريبا لوجاء على العكس فلقد كنا سنتساءل: أين صنعة الكتابية؟ ألم تؤثر فيه؟ أين حياته؟ أين بيئته؟ لا سيما وأصحاب فقه اللغة يقررون أن لكل طائفة من البشر تعمل فى مجال بعينه مجموعة من الاصطلاحات تظهر فى تعبيراتهم شاءوا أم أبوا.

٢- ظهور لوازم الكتابة:

ليست الحروف الهجائية وصورها وأشكالها فقط هي التى تمثل أثر مهنة الكتابة على التصوير الفنى لدى ابن سناء الملك ولكن هناك أمورا أخرى بدت على صورة وهي لوازم الكتابة واصطلاحاتها من مثل الرسم والمحو فى قوله: (٢)

وحميت رسم الدين من أن يمحي ومنعت نور الشرع من أن ينطفي

ومن مثل الخط فى قوله: (٣)

إنما الطرس منك روض نضير والمعاني فى الخط درّ نضيد

(١) السابق، ص ٤٩١.

(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٢٠٢.

(٣) السابق، ص ٨٥.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

فانظر كيف تكون الصحيفة التي يكتب عليها ممدوحه - وهو "كاتب" - روضاً نضيراً  
لجمال ما ينقش عليها، وانظر إلى المعاني كيف تصير دراً منضداً منضماً بعضه إلى بعض  
في السطر الذي يمثل السلك الجامع لهذه الدرر؛ ثم أنظر إلى المجانسة بين نضير، ونضيد  
، والتكميل بهما لما ختماه من معاني الشطرين.

وكما رأينا الخط "وجماله، نرى كلمة تدل على التنميق والمبالغة في التحسين هي  
كلمة النممة في قوله: (١)

تَذَهَّبَ خَدُّ فِيهِ خَطٌّ مُنْمَمٌ      فهل أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ ثَوْباً مُمَزَّجاً

ويبدولي أن هذا تغزل بمذكر إذ النممة هذه تدل على شعيرات اللحية كما أنه  
يصف حبيبه هذا فيما بعد "بالعمم" (٢) وهي صفة للذكر. وذلك مبني على تشبيهه ضمي للخد  
بالطرس أو الصحيفة التي يكتب عليها، يدعمه قوله في موطن آخر: (٣)

وفي خط مسك لاح في طرس وجنة      لها البدر يعزي والبنفسج ينتمي

والكتابة من ظواهرها أيضاً الرقم أو هو من أسمائها وهو إذ يتغزل يرى الحسن  
كتاباً، وخذَّ الحبيب رقما على صفحات كتاب الحسن واضحاً: (٤)

قرأت كتاب الحسن في خط خده      ألم تره في خده واضح الرقم

وكذلك يعد شاعرنا الكتابة نقشاً متأثراً بفنون العمارة إذ كان من المعماريين من  
ينقش الكتاب فوق جدران المساجد لذا فالكاتب نقاش بقلمه العجيب: (٥)

وعجيب إذا خط بالنقش لفظاً      هو من جوهر وفي لون جزع

(١) السابق، ص ٥٢.

(٢) السابق، ص ٢٨٢.

(٣) السابق، ص ٢٨١.

(٤) السابق، ص ٢٢٧٨.

(٥) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١٩٤، وينظر ص ٨٢ البيت رقم ٢٦.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ومن أثر مهنة الكتابة وظواهرها ومعايشته لها ولأصحابها ذكر أسماء الكتاب خاصة من امتازوا بالخط الحسن مثل الوزير ابن مقلة<sup>(١)</sup> الذي أصبح رمزاً ومثالاً يضرب في جمال الخط، فالقد الذي كان من قبل يشبهه بالغصن، أصبح اليوم يشبه بحرف الألف المشقوق وليس أي ألف بل ألف ابن مقلة بالتحديد، فهي ألف لا ككل الألفات:<sup>(٢)</sup>

ألف ابن مقلة في الكتاب كقده والصدق مثل الواو في التحسين وهو إذا أراد أن يفضل أحداً في الكتابة والخط ويبالغ في تفضيله فليس أمامه إلا أن يرفعه عن ابن مقلة، كما في تلك الصورة:<sup>(٣)</sup>

وأكتب من خط الوزير ابن مقلة خطوط لهاتيك الذوائب في الترب

فهو يريد هنا أن يبالغ في طول شعر حبيبته، وأن هذا الشعر لطوله يبلغ الأرض ويكتب على التراب، والحق أنها صورة غير جميلة أراد أن يمدح حبيبته فذمها بها، إذ الطول إلى هذه الدرجة مذموم حتى في ذبول الخيل، فعندما مدح امرؤ القيس فرسه قال:<sup>(٤)</sup>

ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

فهو فويق الأرض لا يصلها بل يقاربها، أما ابن سناء وحبيبته آدمية من بنات حواء يصفها بذلك الوصف القبيح، وهذا على أية حال يدل على تأثر الشاعر بالكتابة وإن أخفق في إجادة الصورة؛ ومن ظواهر عملية الكتابة ولوازمها الخدش، والسطر، في قوله<sup>(٥)</sup>

وخدش على خط العذار كأنه كلام على سطر من الخط ملحق

(١) هو الوزير الكاتب أبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مقلة، من وزراء الدولة العباسية وزر للخلفاء غير مرة، اشتهر بجودة خطه قال الفلقشندی "... قلت ثم انتهت جودة الخط وتحيريه على رأس الثلاثمائة إلى الوزير أبي علي محمد بن مقلة وأخيه أبي عبد الله، قال صاحب إعانة المنشي: وولدا طريقة اختر عاها وكتب في زمانهما جماعة فلم يقاربهما وتفرد أبو عبد الله بالنسخ والوزير أبو علي بالدرج وكان الكمال في ذلك للوزير وهو الذي هندس الحروف وأجاد تحريرها وعنه انتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها" ولد سنة اثنتين وسبعين ومائتين، وتوفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، قال صاحب الوفيات: "وفيها توفي الوزير بن مقلة الكاتب صاحب الخط المشهور وقد ثم قطعت يده ولسانه وسجن حتى هلك وله ستون سنة". ينظر: صبح الأعشى: ٣/ ١٨، ١٩، الوفيات ٥/ ١١٣، شذرات الذهب، ١/ ٣١٠، المستطرف في كل فن مستظرف، ١/ ٢٧٣.

(٢) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٤٦٥.

(٣) السابق، ص ٣٦١.

(٤) امرؤ القيس، ديوانه، (المعلقة).

(٥) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٤١٩.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ومن لوازم الكتابة ما يحدث من النسخ، والتبييض، والتسويد، كما في قوله: (١)

نسخة الحسن فوق خديك أبهى      منظرًا من تبيضها التسويد

والتصحيف يلح على ابن سناء بوصفه كاتباً (٢) والتصحيف أن يخطئ الناقل أو الناسخ

فيكتب حرفاً يؤدي إلى خطأ في القراءة مثل أن يصحف الغدر فيكتبها غدر يقول ابن سناء: (٣)

وهممتُ بالغرِّ الَّذِي تصحيفُهُ      فيه وما كُلُّ الوفاءِ يَلِيقُ

والغدر للحبيب وفاء من ابن سناء، والحبيب فيه غدر، وهو ما قصده ابن سناء

وذلك من أثر الكتابة عليه: (٤)

هذا هو الغدرُ الَّذِي      ما فيه تصحيفٌ لغدر

### ٣- ظهور أدوات الكتابة:

ومن مظاهر تأثير الكتابة في صور ابن سناء الملك، ظهور الأدوات الكتابية مثل القلم والطرس والصحائف والدواة والحبر؛ والقلم هو سيد أدوات الكتابة أقسم الله تعالى به، فقال عز اسمه "نون والقلم وما يسطرون" (٥) وذكره الله تعالى كأداة للتعليم فقال تعالى "علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" (٦)؛ فللقلم في الذاكرة العربية والإسلامية مكانة عظيمة، وله بين أدوات الكتابة مكانة أعظم.

والقلم هو ألصق أدوات الكتابة بصاحبه فهو ملازم ليده؛ بل امتداد طبيعي لهذه اليد يشعر بما تشعر به؛ فيسكب ما تستمده من القلب والضمير على الورق، ولذا فظهوره كثير في شعر ابن سناء الملك، يذكره أكثر من اثنتين وعشرين مرة في صور مختلفة، وذلك كما في قوله: (٧)

(١) السابق، ص ١٩٩.

(٢) التصحيف هو: "كل تغيير في الكلام ينشأ من تشابه صور الخط" ينظر: تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام هارون، ط ٥، مكتبة السنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ص ٦٤.

(٣) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٢٠٦.

(٤) السابق، ص ٥٨٥.

(٥) سورة نون الآية: ١.

(٦) سورة العلق الأيتان: ٤، ٥.

(٧) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٢٦٦.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

فى كفه قلم يجرى أو امره بالبأس والجود أو بالعيش والأجل

فالقلم هنا لخطره يشبه القدر لأنه به تخط مصائر الناس والأوامر التي تقضى لهم بالنعف أو عليهم بالضرر ويتكرر هذا المعنى فى قوله: (١)

فى كفه قلم إن شئت أو قدر يصرف الخلق بين النفع والضرر

كما أن القلم يجلو الطروس ويجلى الظلمات ويرفع الظلم كما فى قوله: (٢)

إذا امتطى القلم العالى أنامله جلا الطروس وجلي الظلم والظلما

والقلم كالسيف يكتب الحجة الدامغة التي تفحم العدو فتعمل فيه عمل السيف فيكون به حمام العدو كما فى قول ابن سناء الملك: (٣)

وبكفه القلم الذى يسقى العداة حمامها

وللقلم أسماء مختلفة منها القلم كما سبق ومنها اليراع فى قوله: (٤)

ولم يدر إن أجرى اليراع بطرسه أيكذب فيه السطر أو ينظم العقدا

وقد يؤنث اليراع فيسميه "يراعة" كما فى قوله: (٥)

وإذا جرد اليراعة فى الكف م علمنا أن السيوف غمود

ومن أدوات الكتابة التي تكثر فى صور ابن سناء الملك الطرس، وهو مقترن بالقلم إذ لا وجود لأثر القلم إلا عليه؛ فهما متلازمان، وكما أقسم الله تعالى بالقلم، أقسم أيضا بالطرس (وإن كان بغير لفظه) فقال تعالى "وكتاب مسطور، فى رق منشور" (٦) وذكر تعالى الرق المنشور، والألواح، والنسخة، ومن هنا جاءت أهمية الأدوات الكتابية واحترام الكتاب لها وتصويرها صورا تدل على مكانة هذه الأدوات.

(١) السابق، ص ١٥٦ .

(٢) السابق، ص ٢٧٦ .

(٣) السابق، ص ٢٨٨ .

(٤) السابق، ص ٨٨ .

(٥) السابق، ص ٨٥ .

(٦) سورة الطور، الآيتان: ٢، ٣ .

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وقد تعددت صور الطرس لدى ابن سناء الملك فمرة ترد بالإفراد ومرة بالجمع ومرة  
ترد بلفظ الصحف وأخرى بلفظ الطروس فمن الجمع قوله: (١)

منه الطروس خدود والسطور بها مثل السوالف والطرآت كالطرر

فالطروس تشبه الخدود والسطور المنقوشة عليها تشبه سوالف الشعر التي تتدلى  
على الخدود وأما "الطرآت" -وأظنه يقصد بها نواصي الصفحات وحدودها من أعلى فهي  
تشبه الطرة التي تتدلى على الجبهة؛ وقد يأتى به مجموعاً فى قوله: (٢)

له قلم جائل فى الطروس فتحسبه أرقماً نضنضاً

والطروس فى هذه الصورة شبيهة بالأرض المنبسطة التي يسير عليها هذا الشعبان  
الأرقم الذي شبه به الشعبان فى الصورة؛ ومن استعمال الطرس مفرداً قوله: (٣)

محرابه الطرس فالعقول له ساجدة إن رأته قد سجدا

فأنت تراه فى هذه الصورة مغاير للصورة السابقة إذ جعله الشاعر محراب يصلى فيه القلم  
الساجد الذي تسجد العقول لحلاوة ما يكتب؛ ومن الصور الطريفة للطرس قوله: (٤)

وبكفه القلم الذى هو فارس فى الطرس حيث الطرس كالميدان

فهو ميدان يصل القلم فيه ويجول إذ القلم فى هذه الصورة فارس هذا الميدان، وقد  
يذكر الشاعر الطرس بلفظ "الصحائف" كما فى قوله: (٥)

إذا ما كتبنا مدحة أشرقت به الصم صحائف لا بل كاد يبيض حبره  
وقد يذكره بلفظ "القرطاس" قوله: (٦)

ينمنم فى القرطاس خطأ موشعا له ثمر كدنا نقوم لقطفه

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ١٥٦ .

(٢) السابق، ص ١٨٧ .

(٣) السابق، ص ١١٦ .

(٤) السابق، ص ٣٣٨ .

(٥) السابق، ص ١٦٧ .

(٦) السابق، ص ١٩٩ .

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ومن أدوات الكتابة التى وردت فى صور ابن سناء الملك "الدواة"، وقد وردت لديه مرة واحدة فى قوله: (١)

ولولاه كنت نبذت الدواة ولولاه كنت كسرت القلم

وهى أقل أدوات الكتابة ذكرا لديه وذلك لأنها أبعدھا التصاقا بكفه ، وهذا يؤيد لدى أن الشاعر يصور ارتباط مشاعره بهذه الأمور ، وأنه ينقل بيئته ، ولا يعيش بعيدا عنها فهو يستعين على التصوير بما لديه من مفردات فى بيئته ويرشح منها ما يقرب من قلبه ويده ، وما يشعر أنه دان إلى نفسه .

ومثل "الدواة" "الحبر" وهو من أدوات الكتابة ولكن ذكره لا يتعدى المرتين لديه فى قوله: (٢)

إذا ما كتبنا مدحه أشرفت به الصـ صحائف لا بل كاد يبيض حبره  
وقوله: (٣)

وما نزهت عيني على وشي حيره ولكنّها قد نزهت في حبيره

ومن خلال البحث السابق يمكن القول: إن الصورة الفنية عند ابن سناء الملك تأثرت بالكتابة بوصفها حرفة احترّفها الشاعر، حتى غدت رافداً مهماً من روافد الصورة فى شعره وجعلت له أسلوباً فى التعبير يغيّر أساليب التعبير الانفعالية، وقد ظهر أثر الكتابة فى الصور الفنية فى شعره ظهورا بينما كما سبق أن عرضنا له من خلال الظواهر التى سبقت الإشارة إليها.

**المطلب الثامن، مظاهر الكتابة فى صور البهاء زهير:**

كما كان للعمل بالكتابة تأثير على ابن سناء الملك، كان له تأثير أيضا على البهاء زهير، فقد "اشتغل الشاعر (البهاء) كاتباً لبنى اللمطي" (٤) فترة من الزمن قد تربو على

(١) ابن سناء الملك، ديوانه، ص ٣١٦ .

(٢) السابق، ص ١٦٧ .

(٣) السابق، ص ٥٨٥ .

(٤) بنى اللمطي هم حكام قوص التى كان يحيا بها الشاعر فى الشطر الأول من حياته، وقد مدح الشاعر أمراءهم.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

خمسة عشر عاماً عن له بعدها - وقد طمح به الأمل إلى أفاق أوسع وأرحب - أن يؤمّ السلطان ويطرق بابه بالقاهرة لعله أن يفتح له أبواب المجد والشهرة ومن ثم الغنى والعيش الرغد" (١)

"وهكذا تبع البهاء زهير نجمه والتحق بالقاهرة لخدمة الملك المسعود بن الكامل ثم بالصالح نجم الدين قبل توليه السلطة ولكنه اختص بالصالح وظل معه إلى أن تولى الملك بعد أبيه الكامل وتولى ديوان الإنشاء وظل عليه فلقب بالصاحب وكانت مرتبته تقرب إلى الوزارة وظل يحظى بتقدير الصالح ورعايته إلى قبيل وفاته" (٢).

ولكن ثقافة الكتابة، بوصفها أعرافاً وتقاليد - يأخذ بها الكاتب نفسه، مما رأيناه عند ابن سناء الملك كانت - تختلف عند البهاء زهير؛ حيث إنه لم يكن فى طباعه وشخصيته كابن سناء الملك، الذى دعاه الثراء إلى أن يحب التأنق فى كل شيء، ولعلّ لا أكون مبالغاً إذا قلت إن التصنيع والتأنق كانا دأبه فى لباسه وطعامه وشرابه، وكلامه وجميع أمره، أما البهاء فلم يشأ منذ البداية أن يحبس نفسه فى سجن التقاليد الكتابية سواء فى الحياة أو فى الفن الشعري، ولم يرد أن يطوق قلمه بأغلال التصنيع؛ بل فضل أن يظل قلمه حراً، وأن يترك شعره يهيم كيف شاء فى ما تختار له عاطفته، ومشاعره .

ولكن مع ذلك لم يخل شعره من مظاهر تعكس ثقافته الكتابية، كظهور الألفاظ التى تتعلق بالكتابة، أو ظهور أسماء الحروف والتورية بها، أو ظهور أسماء بعض أدوات الكتابة ولعل أهم هذه المظاهر هى تصويره للمكاتيب الإخوانية أو الغزلية أو ما يرسل به ممدوحه له من عتاب أو غير ذلك.

١ - ظهور لوازم الكتابة:

(١) د. محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر الأيوبي، الجزء الثانى ط ٢ منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٧م ص ٢٨٣.  
(٢) السابق، ص ٢٨٤.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

ومن لوازم الكتابة "الكتاب" وأقرب معنى للكتاب إلى ذهن البهاء، وطبيعته: أن يقصد به "المكتوب الغرامي" المرسل له من حبيبته أو صديقه، أو بمعنى آخر الكتاب الذي يحمل العواطف والمشاعر، لا الذي يحمل إقطاعاً أو أمراً بتقليد وظيفة جديدة أو ترقية من رتبة سياسية إلى رتبة، مما يهم العاملين في الدواوين من مدرسة الكتاب أمثال ابن سناء الملك، فقد كان اهتمام البهاء بـ"الكتاب" يتمثل في هذا النوع من المكاتيب الغرامية فظهر عنده لفظ الكتاب يحمل هذا المضمون وقد وجدت في ديوانه مقطوعات كاملة يصور فيها المكتوب وأثره في نفسه من مثل قوله: (١)

وَأَفَى كِتَابِكَ وَهُوَ بِالْـ  
أَشْوَاقٍ عَنِّي يُعْرَبُ  
قَلْبِي لَدَيْكَ أَطْنُهُ  
يُمَلِي عَلَيْكَ وَتَكْتُبُ

فالصورة متأثرة بثقافة الكتاب، دائرة في فلكها؛ فموضوع القصيدة هنا "كتاب صديقه" وهو كتاب يعرب عن الشوق، فكأنه قلب الشاعر الذي امتلأ بالأشواق إلى صديقه بل لكأن قلبه هو الذي كان يملئ هذا الكلام على يد صديقه الكاتبة، فتأمل لفظ "يملي" و"تكتب" فهما يصوران تأثر الشاعر بهذا الجو حيث الكاتب جالس والأمير يملئ عليه الذي يكتبه.

وتأمل قوله يصور رسالة مكتوبة، ولكنها مكتوبة بتعجل، مما يوقفك على حال الكاتب وأنه قد يعثره القلق فيكتب في سرعة وقد يمهله الوقت فيكتب على مهل، لكن رسالة شاعرنا كانت مكتوبة في سرعة، فتأمل كيف صور حاله ساعة الكتابة يقول: (٢)

كَتَبْتَهَا مِنْ عَجَلٍ  
فَاعْجَبَ لَهَا مَنْظُومَةٌ  
كَأَنَّي كَتَبْتُهَا  
فَاضْطَرَبْتُ أَجْزَائُهَا  
بَدَهَشْتِي وَقَلَّقِي  
مِنْ خَاطِرٍ مُفَرِّقٍ  
مُرْتَعِشاً مِنْ زَلْقٍ  
جَمِيعُهَا فِي نَسَقٍ  
خَطِّي مِدَادِي وَرَقِي  
ثَلَاثَةٌ تَشَابَهَتْ

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص، ٢٠.

(٢) السابق، ص ١٨٩.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

فَخَطَّهَا كَأَنَّه  
مَدَادُهَا كَحَمَاءَةٍ  
وَرَقَّهَا أَيْبَضُ لـ  
لَكِنَّا شَاهِدَةٌ  
وَلَمْ أَكُنْ أَخْذَعُكُمْ  
بِظَاهِرٍ مَزُوقٍ  
مَشَى ضِعَافِ الْعَلَقِ  
مَسْنُونَةٍ فِي الطَّرْقِ  
كُنْ كَبِيَّاضِ الْبَهَقِ  
بِعَدَمِ التَّمَلُّقِ  
بِبَاطِلٍ مُنْمَقٍ  
وَبَاطِنٍ مَمَزُوقِ

إن الشاعر فى هذه المقطوعة يرسم لنا صورة الكاتب أثناء الكتابة، ويستعمل مفردات الكتاب من الورق، والمداد، والخط، وما يمكن أن يظهر من أثر القلق على الخط. وما يعد من لوازم الكتابة ما ورد هذه الصورة التى يتحدث فيها البهاء زهير عن الكتاب الذى جاءه من سيده أو حبيبه أو صديقه كثيرة مما يدل على تأصل ثقافة الكتابة وعمق أثرها فى نفسه، وذلك مثل قوله: (١)

أَتَتْنِي مِنْ سَيِّدِي رُقْعَةٌ  
وَرَحْتُ لِرَسْمِ إِسْمِهِ لِأَثْمًا  
فِيَا حَبَّبًا ذَا غُرِّ أَيْبَانِهَا  
فَأُودَعْتُهَا فِي صَمِيمِ الْفُؤَا  
فَقَلَّتِ الزَّلَالُ وَقَلَّتِ الضَّرْبُ  
كَأَنِّي لَثَمْتُ اللَّمَى وَالشَّنْبُ  
وَمَا أُودِعْتُ مِنْ فُنُونِ الْأَدَبِ  
دِ وَلَمْ أَرْضَ تَسْطِيرَهَا بِالذَّهَبِ

فتأمل ألفاظ " رقعة، رسم اسمه، تسطيرها" تجد أن الكتابة وظواهرها عميقة الأثر فى البهاء ولعل قوله " رقعة" يدل على نوعية المكتوب عليه وأنه من الجلد أو القماش وليس من الورق. ومن مثل ذلك قوله: (٢)

أَكْتَابٌ مِنْ فَاضِلٍ  
أَمْ أَرَاهِيْرُ رَوْضَةٍ  
قُلْتُ لِمَا رَأَيْتُهُ  
ثُمَّ لِمَا قَرَأْتُهُ  
وَتَوَهَّمْتُ أَنَّهُ  
قَالَ قَوْلًا فَأَسْهَبًا  
فَتَقَّتْهَا يَدُ الصَّبَا  
مَرْحَبًا ثُمَّ مَرْحَبًا  
هَزَّ عَطْفِي تَطْرُبًا  
رَدَّ لِي رِيْقَ الصَّبَا

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص، ٣٣.

(٢) السابق، ص ٣٤.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

إنه يشبه الكتاب بالأزاهير، التي فتقتها يد ریح الصبا، فأظهرت جمالها، ثم يتخيل حروف الكتاب أشخاصا فيستقبلهم بالترحاب قائلاً أهلاً ومرحباً، ثم يبين أثر الكتاب عليه وكيف هز عطفه طرباً لما قرأه .. والواضح أن الطبيعة عنده هي المشبه به أى هي الأساس وأدوات الكتابة هي المشبه أو هي التالية فى الإدراك، وهو فى هذه الطريقة من التصوير يغير ابن سناء الملك الذى تمثل مفردات الكتابة وأدواتها بيئته الأصلية.

واستحضار الروض، والطيب فى مقام تصوير الكتاب كثير عند البهاء من مثل قوله: (١)

كِتَابٌ أَتَانِي مِنْ حَبِيبٍ وَبَيْنَنَا      لَطُولِ التَّنَائِي بَرَزَخٌ أَيْ بَرَزَخِ  
تَقَدَّمَ لِي عَنْهُ مِنَ البُعْدِ أَنْسُهُ      وَفَاحَ إِلَيَّ الطَّيْبُ مِنْ رَأْسِ فَرَسَخِ  
كَأَنَّ نَسِيمَ الرُّوضِ عِنْدَ قُدُومِهِ      سَرَى بِقَمِيصٍ بِالعَبِيرِ المُضْمَخِ  
لَقَدْ بَانَ مِنْ تَارِيخِهِ فِي هِزَّةٍ      فَقُلْ فِي كِتَابِ بِالسُّرُورِ مُؤَرَّخِ

ولعل فى البيت الأخير ما يوضح عادة كتابية هى عادة تأريخ الكتاب، أى وضع تاريخ اليوم والشهر والسنة، ولعل ذلك من أثر اهتمامهم بالزمن وقيمته ، مما علمتهم حضارتهم.

والكتاب فى البعد هو الذى يشرح حال الشاعر، ويوقف أحبابه على حاله، وما هو

فيه من الشوق كما يقول: (٢)

هَذَا كِتَابِي وَهُوَ يُط      لَعَمْرُ عَلَى حَالِي وَضَرِّي  
فَتَأَمَّلُوا فِيهِ تَرَوَا      أَثَرَ الدُّمُوعِ بِكُلِّ سَطْرِ  
مَاءٌ تَدْفَقُ مِنْ جُفُو      نِي فَهَوَ مِنْ نَارِ بَصَادِرِي  
كَالعُودِ يُوَقِّدُ بَعْضُهُ      وَالبَعْضُ مِنْهُ المَاءُ يَجْرِي

ولعلك تلاحظ دقة التشبيه وروعته، وجدته وطرافته فى البيت الأخير، فالعود عندما يحترق تجد النار ممسكة ببعضه بينما يعتصر حرها الماء من بعضه الآخر، تمهيدا

(١) البهاء زهير، ديوانه، ص ٦٧.

(٢) السابق، ص ١٠٧.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

لتجفيفه حتى تأكله النار، وتلك صورة طريفة جديدة، تدل على تأمل الشاعر فى الطبيعة من حوله، وله دلالة أخرى هى أن الكتابة وثقافتها لم تلفت الشاعر عن الطبيعة.

ومن تصويره للكتاب تصوير نظامه من ذكر التسمية فى أوله كما شبه يوم حضور المدوح فى أيام الزمان بأنه يأخذ الصدارة كالتسمية فى الكتاب: (١)

يَوْمٌ يَسْطُرُ فِي الْكِتَابِ مَكَانَهُ كَمَا كَانَ بِسْمِ اللَّهِ فِي خَتَمَاتِهِ  
ولعل المثل القائل "الجواب يبين من عنوانه" هو ما قصده الشاعر بقوله: (٢)

أَيُّهَا الْغَافِلُ مَا تُبْ صِرُّ عُنْوَانِ الصَّحِيفَةِ

وأظنه يقصد الشيب وأنه عنوان الموت، أو الحياة وكونها عنوان الآخرة، أو دلائل الفناء فى الدنيا من حيث إنها دلائل على وجود الحياة الخالدة بعد البعث، ولكنه عبر أو صور ما يريد بما التفت إليه فى بيئته الكتابية.

ومن لوازم الكتابة وتأثره ببيئة الكتاب ذكر "الإملاء" فى قوله: (٣)

فَعِدْنِي يَوْمًا نَجْتَمِعُ فِيهِ سَاعَةً لِأُمْلِي مِنْ شَوْقِي إِلَيْكَ الَّذِي أُمْلِي

فالإملاء إنما يكون للكتابة، والصورة هنا تظهر الشوق هو المادة التى يملئها الشاعر وأظن أن الورقة المكتوب فيها متخيلة فى قلب حبيبه الذى يملئ، وكأنى هنا بقلبين أحدهما يملئ والآخر يكتب ما يملئ عليه.

وشاعرنا كاتب يضع مهارته الكتابية فى مقابلة الكتاب، ولكنه فى غزله المتهاك يصور كتبه أضعف من منازل الكتاب، كما فى قوله: (٤)

مُنْعَةً بِالْخَيْلِ وَالْقَوْمِ وَالْقَنَا وَتَضَعُ كُتُبِي عَنْ زِحَامِ الْكُتَائِبِ

(١) السابق، ص ٤٣.

(٢) السابق، ص ١٧٠.

(٣) البهاء زهير، ديوانه، ص ٢١٠.

(٤) السابق، ص ٢٩.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وهذا أمر يغير ما وجدناه عند ابن سناء إذ الكتب عنده دائماً أقوى من الكتابات وأشد منها سطوة، ويرجع هذا التغير إلى أن الطبيعة الغزلية أقوى في البهاء منها في ابن سناء، وأن إدراك البعد النفعي في التجربة الشعرية أقوى عند ابن سناء الملك. ومن لوازم الكتابة ذكر الخط والحرف كما في قوله: (١)

أغارُ على حَرْفٍ يَكُونُ مِنْ إِسْمِهَا إِذَا مَا رَأَتْهُ الْعَيْنُ فِي خَطِّ كَاتِبٍ  
فالكِتابِ ولِوَأَزْمِهَا تَتَسَلَّلُ إِلَيْهِ فِي أَحْوالِ الحَبِّ والشَّوْقِ والغَيْرةِ، وربما يكون ظهور مثل هذه الصورة في مقام كمقام الغزل عند البهاء مما يدل على أن ذلك تأثير غير متصنع.

### ٢- ظهور الرموز الكتابية:

رأينا عند ابن سناء الملك الكثير من الحروف كالواو، والنون والألف، والعين، وغيرها وقد ظهرت بعض الحروف في بعض صور البهاء زهير مما يدل على اشتراكه مع مدرسة الكتاب في تصور أشكال الحروف وتأملها وظهورها في صورته الفنية من مثل قوله: (٢)

مَمشُوقَةٌ القَدِّ لَهَا صُدُغٌ كَنُونٍ مُشَبِّقَتِ

فالخصلة من الشعر حين تلتوى على الخد محتوية في وسطها خالا أسود كالنقطة تشبه حرف النون الذي يتقوس حاضنا نقطته، ولكن قد لا توجد النقطة، وعندئذ تشبه هذا الخصلة حرف الواو كما يتصورها البهاء في قوله: (٣)

لِلَّهِ أَيُّ قَلَمٍ لَوَاوٍ ذَاكَ الصَّدَغُ خَطِّ  
وَيَا لَهُ مِنْ عَجَبٍ فِي خَدِّهِ كَيْفَ نَقَطَ

### ٣- ظهور أدوات الكتابة:

قلنا من قبل إن القلم هو ألصق الأدوات الكتابية بيد الكتاب، ولذا يكثر ذكره عند الشعراء الكتاب ومثلنا لذلك بصور كثيرة عند ابن سناء الملك، لكن الأمر مختلف عند البهاء زهير الذي قل جدا أن يذكر القلم كما في البيت الأول من البيتين السابقين وكقوله: (٤)

(١) السابق، ص ٢٩.

(٢) السابق، ص ٤٢.

(٣) البهاء زهير، ديوانه، ص ١٥٠.

(٤) السابق، ص ٢٥٤.

الصورة الفنية في قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

وَإِنْ نَفَّتْ فِي الطَّرْسِ مِنْهُ يِرَاعُهُ رَأَيْتَ عَصَى مُوسَى غَدَّتْ وَهِيَ تُعْبَانُ  
(١) وكما يذكر القلم واليراعة يذكر الطرس والصحيفة، والمداد كما فى قوله:

يَحْكِي بَيَاضُ الطَّرْسِ لِي مِنْهَا بَيَاضَ الْوَجْنَتَيْنِ  
وَأَتَى سَوَادُ مِدَادِهَا يَحْكِي سَوَادَ الْمُقَلَّتَيْنِ

(٢) وقد يذكر عادات الكتاب كالتحبير، والتبييض والتسويد كما فى قوله:

تَكَادُ إِذَا حَبَّرْتُ مِنْهَا صَحِيفَةً لِذِكْرِكَ أَنْ تَبْيَضَّ مِنْهَا سَطُورُهَا  
وَقَوْلُهُ: (٣) وَسَمِعْتُ عَنْكَ قَضِيَّةً قَدْ سُوِّدَتْ فِيهَا الدَّفَاقِرُ

فمظاهر الكتابة وأدواتها كانت قليلة الظهور فى صور البهاء، إذا ما قيست بمظاهرها عند ابن سناء الملك الذى بدت عنده الكتابة ومظاهرها وأدواتها بوفرة، ولعل ذلك راجع إلى أن هناك نوعا من المدح وهو "مديح الكتاب" لم يقترب منه البهاء إلا مرة واحدة فى مدحه للوزير صاحب الكاتب ابن شكر؛ بينما كان هذا النوع من المدح أصلاً وأساساً قام عليه مدح ابن سناء الملك لارتباطه بالقاضى الفاضل الذى مدحه بنيف وثلاثين قصيدة، فى مقابلة قصيدة واحدة فى هذا النوع عند البهاء زهير.

فلم تؤثر الكتابة على البهاء بوصفها مهنة يظهر أثرها على المشتغل بها سلوكاً وإبداعاً، ولم تكن رافداً مهماً من روافد ثقافته، بل إن تعلقه بها كان كتعلق أى أحد يعرف قدرها ضئيلاً من ثقافة الكتاب، ويدل على هذا قلة ظهور الصور المتأثرة بالكتابة إذا قورنت بما عند ابن سناء الملك؛ وذلك كله راجع أيضاً إلى الثراء عند ابن سناء الملك، والفقر عند البهاء لا سيما فى بداية حياته.

فثراء ابن سناء الملك وتفرغه أتاح له التأمل فى أشكال الحروف، وما يشبهها فى دنيا الواقع، بينما فقر البهاء وحاجته شغلاه عن تلك الأمور الدقيقة، إذ لم يكن لديه وقت

(١) السابق، ص ٢٧٨.

(٢) السابق، ص ٩٧.

(٣) السابق، ص ١٣٠.

الصورة الفنية فى قصيدة المدح ← بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة

يتأمل فيه الدقائق العقلية، التى لا يكون لها قيمة مع الحاجة إلى لقمة العيش، ولعل ظهور الصور الكتابية السابقة التى عرضت لها عند البهاء كان فى فترات متأخرة بعد أن بدأت أوضاعه المالية فى الاستقرار فى صحبة الملك الكامل.

وراجع أيضا إلى النشأة التى نشأها ابن سناء الملك حيث ولد ونشأ وتربى فى حجر الكاتب الكبير الوزير القاضى الفاضل، وقبل ذلك فى حجر أبيه الذى كان أيضا يعمل بالكتابة، وهو فى هذه الناحية يختلف عن البهاء الذى لا تدل ترجماته ولا يدل شعره على وجود صلة بين أبيه وبين الكتابة بل ولا العلم.

فالبهاء زهير عصامى كون ثقافته بجهد فردى ولذا تأخر فى التحصيل المعرفى والعلمى أشواطاً عن ابن سناء الملك، ولكن موهبته الشعرية القوية وتعبيره الصادق عن عواطفه هو الذى كفل لشعره الوجود فى زمن كان البقاء فيه للأصلح بمقاييس ذلك الزمن. فنوعية الممدوح، والطبيعة الشخصية، والنشأة، والثراء، والتفرغ، أدت إلى ظهور ثقافة الكتابة بمظاهرها المتعددة بشكل كبير عند ابن سناء الملك، وقلة ظهورها نسبياً عند البهاء زهير.

ولعل هذه الروافد التى تأثر بها كل من الشعارين كان لها ظهورها الدين فى موضوعات الصورة التى عنيا برسمها، وهذا يتطلب أن نستعرض موضوع الصورة فى قصيدة المدح، وهو ما سيتناوله الفصل القادم، وسوف يدور الحديث حول نموذجين للمدح هما الكرم والشجاعة بوصفهما الأشهر والأكثر تردداً فى لوحات المديح العربى لنرى كيف عالج كل من الشعارين هذين النموذجين.